اقرأ

عارف تامر

أروى بنت اليمن





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



لبنان ١٠٠ ق . ل   سوريا ١٠٠ ق . س   الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق – الكويت ١٠٠ ف . ع الخليج العربي ١٥٠ ف السعودية ٢ ريال
عدن ٢,٥ شلن   السودان ١٢٠ مليما   ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم   الجزائر ٢,٢٥ دينار   المغرب ٢,٢٥ درهم

عارف تامر

أروى بنت اليمن

اقرأ ٣٣٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٣٠ – يونيو سنة ١٩٧٠

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تقديم

هذه صفحات مشرقة من تاريخ دولة كبرى لعبت دوراً هاماً على مسرح الأحداث فى الشرق العربى ، فكانت من أعظم الدول الإسلامية أثراً ، وأخلدها ذكراً ، وأبعدها شأواً ، وهى « دولة الصليحيين » التى لبست اليمن على أيديها ، حلل المجد القشيبة ، وانتظمت فى وحدة جامعة ، ترفرف عليها أعلام العدل والأمن والسلام ، وخاصة فى عهد الملكة الحرة « أروى الصليحى» التى استطاعت أن تحكم اليمن بجميع أجزائها، وكان حكمها طرازاً جديداً لم يرا اليمنيون مثله من قبل ، لأنه استهدف وحدة الشعوب اليمنية على اختلاف أجناسها وأديانها وجمعها تحت راية سياسية واحدة تظللهم بالعلم والسلام ، وتعطيهم الحرية فى القول والتفكير والاعتقاد ، وكل هذا كان من الدعائم المتينة التى قامت عليها تلك الدولة ، وكان من أثرها أن خفقت راية الوحدة فى ربوع اليمن السعيدة فترة من الزمن ، وأظلت أهل الوطن الواحد حكومة واحدة قوية الأركان نشرت ألوية الأمن والمحبة والسلام ، وعمت العدالة والعلم والمساواة .

المؤلف

اليمن فى عهود الإسلام الأولى

منذ بداية عهود الإسلام ، وحينما أخذت الرسالة المحمدية السمحة تتوسّع وتنتشر، وجّه صاحبها اهتمامه إلى اليمن؛ فهذا الإقليم الواسع من الوجهة العامة يعتبر ناحية ذات أهمية بالنسبة للبلدان العربية، وبالنظر لموقعه الجغرافى الهام. ولأن أهل هذا القطر اشتهروا بالشجاعة والإقدام والثبات على المبادئ وصفاء السريرة ، فضلا عن أنهم مثال النشاط والإخلاص والحفاظ على الكرامة والتراث ، ولهذا نراهم قد قبلوا الدعوة الإسلامية عن صدق وإيمان ، ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح الإسلام فى أعماقهم متمكناً راسخاً . وكل هذه البوادر الطيبة، والظواهر النفسية العجيبة ، حدت بالنبى الكريم إلى توجيه اهتمامه لهذا القطر ، وإلى تخصيصه بالتعاليم الإسلامية الجديدة والتوجيه العقائدى الحديث النابع من الشريعة الإسلامية الغراء. فأرسل إليهم خواص أهل دعوته ، وصفوة رجال المسلمين المؤمنين ، لتعليمهم الإسلام وقواعده ، ولحضهم على التمسك بأهدابه ، والتظلل بظله . ومما هو ثابت تاريخيًّا أن النبى لم يكن يفضل أحداً من أهله أو أصحابه على علىّ بن أبى طالب ،

وهذا جعل منه السفير الأول لهذا القطر ، والمسئول المباشر عن شئونه . ومن هنا تمكن من أن يكوّن له فى اليمن مريدين مخلصين ومحبين كثيرين ظلوا إلى آخر لحظة فى حياتهم أوفياء لمبادئهم مخلصين لتعهداتهم .

هذا ويحدثنا التاريخ أن الإمام على بن أبى طالب زار اليمن ثلاث مرات، وفى المرة الأخيرة وصل إلى «عدن أبْيَنْ» وذكر ابن هشام أن محمداً (عليه السلام) بعث علياً إلى أهل نجران بعام الوفود ، وذلك ليجمع صدقتهم ويقدم عليهم بجزية . وقال كثير : إن محمداً (عليه السلام) أرسل علياً إلى اليمن قبل « حجة الوداع » فقدم إلى صنعاء ، وصلى برجالها ، وجمع قبائل همدان وقرأ عليهم كتاب النبى ، فأسلمت همدان جميعها فى يوم واحد ، ولما وصل الخبر إلى النبى خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان ... السلام على همدان ...»

وقال على فى ذلك : بعثنى رسول الله وأنا حديث السن . فقلت تبعثنى إلى قوم لا يكون بينهم أحداث ولا علم لى بالقضاء . فقال : « إن الله سيهدى لسانك ، ويثبت قدمك .. »

قال على : فما شككت فى قضاء بين اثنين .

وقبل أن يعود على من اليمن عمر مسجداً بصنعاء وعرف باسمه .

فمما لاريب فيه أن مثل هذه الاتصالات للإمام على باليمن

تركت حبه حياً فى نفوسهم ، وظل هذا الحب ينمو ويزداد مع الزمن ، حتى إن الإمام الفاطمى « الحسين بن أحمد ابن عبد الله » حين أرسل ابن حوشب « منصور اليمن » من سلمية — سوريا داعياً إلى اليمن أمره أن ينزل « بعدن لاعة »، لأن فيها بعض من يدين بدعوته ، وعندما وصل إليها وجد كثيراً ممن يدينون له بالولاء ولآل بيته .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أنصار على فى اليمن ظلوا يعملون فى أكثر الأحيان على اكتساب الأنصار، وضمهم إلى صفوفهم ، وحجتهم أن علياً وحده أهل للخلافة ، وأولى الناس بمقام رسول الله ، وأحقهم بالإمامة والقيام بأمر الله والأمة ، وأن الخلفاء الذين سبقوه قد انتزعوا حق الإمامة والخلافة منه ، وكل هذا يدل على أن التشيع لعلى بن أبى طالب ظل منتشراً ، وقد تجلت مظاهره فى مواقف كثيرة . فلما رحل « عبد الله بن سبأ الصنعانى » إلى مصر بعد أن طاف بالكوفة والبصرة والشام ، التف حوله المسلمون هناك ، لأنه حمل على سياسة الخليفة الثالث عثمان التى كانت مثاراً للسخط فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، ونادى بحب على لأنه أولى من غيره بالخلافة ، فانضم إليه فى مصر عدد كبير ، وفى مقدمتهم « محمد بن أبى بكر » وقد ساعد انضمامه على نجاح ابن سبأ فى

مهمته ، لأنه النجل الأكبر للخليفة المناوئ لعلى بن أبى طالب

ومن الجلى الواضح أن سبب رواج دعوة ابن سبأ فى مصر يعود إلى وجود عدد كبير من اليمنيين فيها ، وهم الذين جاءوا مصر منذ عهد الفتح الإسلامى واستقروا فيها ، وهؤلاء اليمنيون كانوا ممن يحبون علياً وآل بيته ، ويتشيعون لهم .

ومهما يكن من أمر فإن الذى ساعد على انتشار التشيع فى اليمن جهاد قبائل همدان مع الإمام على فى حروبه ، ويعد ما قاله أمير المؤمنين على فى صفين دليلا واضحاً على ذلك : « يا معشر همدان أنتم درعى ورمحى ، والله لو كنت بواباً على باب الجنة لأدخلتكم قبل جميع الناس ... وما نصرتم إلا الله تعالى ، وما أحببتم غيره » ، فقال سعيد بن قيس وزياد بن كعب : « أحببنا الله وإياك ، ونصرنا الله وإياك ، وقاتلنا معك من ليس مثلك ، فارم بنا حيث شئت » .

فلا عجب بعد هذا إذا ما رأينا همدان تضحى بكل غالٍ ونفيس فى سبيل الإمام على مادام أنه عدّها درعه ورمحه . وليس أدل على حبه لها وحسن تقديره لجهادها فى سبيله من هذه القصيدة :

ولما رأيتُ الخيل تُقرع بالقنا   فوارسها حمر النحور دوامى

ونادى ابن هندٍ ذا الكلاع ويُحصُب   وكندة معْ لخمٍ وحى جذام

تيممتُ همدان الذين همُ همُ   إذا ناب أمرٌ جنتى وسهامى

وناديتُ فيهم دعوة فأجابنى   فوارس من همدان غير لئام

رجال يحبون النبى ورهطه   لهم سالف فى الدين غير أثام

همُ نصرونا والسيوف كأنها   حريق تلظى فى هشيم ثمام

فلو كنت بواباً على باب جنة   لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

هذا ويعد مالك الأشتر النخعى قائد جيوش على من الأمثلة البارزة التى لعبت دوراً مهماً فى الحروب التى خاضها ، وأبلى بلاء حسناً ، وخاصة فى موقعتى الجمل وصفين . ويدل موقفه من التحكيم فى صفين على مقدار إخلاصه وتفانيه فى الحصول على النصر ، فقال عندما رفع جند معاوية المصاحف ووافق جند العراق على التحكيم :

« يا أهل العرق . . . أحين ظن القوم أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ، وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ، فأمهلونى ، فقد طمعت فى النصر ، وأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم أنتم الآن محقون » . فأجابوا : دعنا منهم يا أشتر ؛ فقال : خُدعتم فانخدعتم . واستمر يحثهم ولكن دون جدوى .

هذا ... وكان البراء بن وفيد العذرى اليمانى من الأمثلة الواضحة التى تدل على حب اليمنيين لإظهار كلمة الحق ، وإغاثة المظلومين والضعفاء ، فقد حارب هذا مع معاوية

فى موقعة صفين ، ولكن البراء نقم على معاوية عندما منع أصحاب على ماء الفرات ، فقام إلى معاوية وقال : سبحان الله العظيم ! حين سبقتموهم إلى الفرات تمنعونهم الماء ، وإن فيهم العبد والأجير والأمة ومن لا ذنب له ، هذا والله أول الجور ، لقد بصرت المرتاب ، وشجعت الجبان ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك ... فقال معاوية لعمرو بن العاص : اكفنى صديقك الهمدانى لا يفسد على عسكرى ، فقام إليه عمرو فأغلظ له ، فأنشأ البراء يقول :

لعمرُ أبى معاوية بن حرب ... وعمرو مالأيّهما وفـــاءُ

سوى طعن يحار القِيل فيه ... وضرب حين تبتاع الدماء

فلستُ بتابع دينَ ابن هند ... طوال الدهر ما أرسى حراء

وعندما جن الليل لحق البراء بجيش على فظل يقاتل حتى قتل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التشيع ظل متستراً فى بلاد اليمن فترة طويلة ، واستمر المتشيعون فى ولائهم لعلى وبيته بالرغم مما لاقوه من ضغط الحكام والولاة ، وقد ظلت الفرقة الشيعية تعمل فى الخفاء ثم تعود إلى الظهور كلما سنحت لها الفرصة وساعدتها الظروف ، ومما يدل على انتشار هذا المبدأ فى بعض جهات اليمن ، وعلى وجه خاص فى منطقة «عدن لاعة» قول السيد الحميرى معرفاً بنفسه مفتخراً على الفرقة الأباضية :

إن تسألينى بقومى تسألى رجلا ... فى ذروة العز من أحياء ذى يمن

حولى بها ذوكُلاع فى منازلها ... وذو رعين وهمدان وذو يزَن

والأزدُ أزدُ عمان الأكرمون إذا ... عُدّت مآثرهم فى سالف الزمن

بانت كريمتهم عنى فدارهُم ... دارى وفى الرحب من أوطانهم وطنى

لى منزلان بلحج منزل وسط ... منها ولى منزل للعزّ فى عدن

ثم الولاء الذى أرجو النجاة به ... من كبّة النار للهادى أبى الحسن

ولعل انتشار التشيع والمتشيعين سرًّا وعلانية فى بلاد اليمن كان من أهم الأسباب التى دعت الإمام الفاطمى المستور «الحسين بن أحمد بن عبد الله» سنة ٢٦٨ هـ إلى إرسال ابن حوشب «منصور اليمن» من سلمية — سوريا إلى تلك النواحى من اليمن كما سبق أن ذكرنا ، كما كانت من أهم الأسباب التى حملت بعض قبائل اليمن على الانضمام إلى دعوة الإسماعيليين .

وكل هذا يجعلنا نقرر : أن اليمن يعد حصناً منيعاً من حصون الشيعة ، بل مستودعاً من مستودعاتها ، لأن أهله برهنوا فى مواقف كثيرة على حبهم لعلى وبنيه ، ويعدّ انتشار التشيع فى تلك البلاد وقيام الدولة الإسماعيلية من العوامل التى أضعفت العلاقات التى كانت تربط اليمن بالعباسيين الحاكمين.

الحركة الإسماعيلية فى اليمن

استقر الأئمة الإسماعيليون فى بلدة سلمية — سوريا ، واتخذوها قاعدة لهم ، ومركزاً لتوزيع تعاليم حركتهم ، بعد أن هاجروا إليها من الجزيرة العربية فراراً من سيوف العباسيين . وقد سموا أنفسهم « القداحيين » وأعلنوا أنهم حجج للإمام المستور المهدى المنتظر الذى ينحدر من الإمام جعفر بن محمد « الصادق » ، وقد ظل هؤلاء الأئمة يقومون بدعوتهم على هذا الأساس واحداً بعد آخر بطريقة سرية خوفاً من العباسيين الذين كانوا يحصون عليهم كل حركة وسكنة ، حتى ظهر الإمام « عبيد الله المهدى» الذى وجّه اهتمامه إلى اليمن ، وعدّها من الأقطار التى يجب أن يكون فيها للإسماعيلية دولة كبرى ، ولهذا يقول أكثر المؤرخين إن نشاط الدعوة الإسماعيلية فى اليمن بدأ فى عهد الإمام المستور « الحسين بن أحمد » والد الإمام « عبيدالله المهدى» ، وداعيه ابن حوشب « منصور اليمن » وعلى بن الفضل الحبشانى ، ولكن لابد من القول بأن بذور هذه الدعوة قد غرست فى اليمن قبل هذا الوقت . ويمكن القول إن الدعاة الإسماعيليين بدءوا نشاطهم فى اليمن

منذ عهد الإمام « محمد بن إسماعيل » ولكن على نطاق ضيق جدّاً وبصورة سرية. وفى أواخر القرن الثالث الهجرى أصبحت اليمن قاعدة رئيسية لنشر مبادئ الحركة الإسماعيلية فى كثير من بقاع العالم الإسلامى ، كمصر والمغرب والحجاز وسواها ؛ وساد الاعتقاد فى تلك الأقطار أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم فى اليمن ، وأن المهدى المنتظر سيرفع علمه فى أرجاء تلك البلاد السعيدة ، ولكن الشيء الذى يمكن تقريره فى هذا الصدد هو أن الحركة الإسماعيلية لم تظهر كقوة ذات تأثير فى إقليم اليمن إلا فى عهد الإمام « عبيد الله المهدى » الذى انتقل من سلمية إلى المغرب .

فى تلك الفترة كانت اليمن تابعة للدولة العباسية ، وكان الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم ، وكانت صنعاء حاضرة لهم ، ولكن الأمور فيها لم تكن مستقرة استقراراً تامًّا ؛ لأن السلاطين والأمراء اليمنيين كانوا يتنافسون فيما بينهم فى سبيل تولى الحكم من قبل الخلفاء العباسيين ، وكذلك فى جزيرة العرب بصفة عامة كانت الأمور غير مستقرة وبسبب الثورات التى قام بها العلويون فى بلاد الحجاز واليمن ، وبسبب ظهور القرامطة الإسماعيليين فى بلاد البحرين وبسط سلطانهم على اليمامة وعمان ، وبسبب نشاط الحركة الإسماعيلية فى سلمية — سوريا

وهدفها قلب النظام السائد فى العالم الإسلامى .

وقد كان لهذه الأحداث أثر غير مرضٍ فى الجزيرة العربية بأسرها ، فصارت فى شبه عزلة ، كما تأخرت فى النواحى الاقتصادية والعلمية . ولم يكن فى تلك الأيام ببلاد اليمن بصفة خاصة وحدة سياسية تجمع شمل الأقاليم والولايات التى أنهكتها المنافسات الداخلية والاختلافات المذهبية تحت لواء واحد ، وتقود الجميع نحو هدف واحد ، وكانت الولايات فى هذه البلاد شبه مستقلة عن الدولة العباسية إداريًا وسياسيًا لضعف الخليفة عن حربها ، ولكنها لم تستطع الاستقلال عنه دينيًا ، لأن الولاة كانوا لا يستغنون عن بيعة الخليفة لتثبيت سلطانهم ، فكان بنو زياد يقيمون فى زُبيد ، وهم من ولد عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان ، وقد ولى محمد ابن زياد اليمن من قبل الخليفة المأمون العباسى سنة ٢٠٣هـ ، وكان بنو يعفُر فى صنعاء ، وهؤلاء قامت دولتهم فى اليمن فى أواخر عهد المتوكل ، وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى نائبًا عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان واليًا للخليفة المعتصم على نجد واليمن ، ولما توفى عبد الرحيم خلفه ابنه يعفُر ، وهو رأس الدولة وباعث استقلالها سنة ٢٤٧هـ ، واستمر أعقابه فى صنعاء حتى سنة ٢٨٧ هـ وهو من أولاد

التبابعة من حمير ، ثم دخل بنو يعفر تحت سيادة بنى زياد حيث استمر الحكم فى دولتهم حتى خلع أبو الجيش إسحاق ابن إبراهيم طاعة العباسيين سنة ٢٨٩ — ٢٩١ هـ ، وحلت فى عهده عوامل القلق والاضطراب التى أدت إلى عدم الاستقرار وفقدان الوحدة السياسية ، ومن أهمها ظهور الإمام الزيدى الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم الرسّى سنة ٢٨٠هـ الذى نزل « صَعدة » لنشر دعوة الإمام زيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب وقد اتبعه عدد غير قليل من القبائل التى كانت تميل إلى التشيع فصارت الزيدية من يوم ظهوره من أهم العناصر فى حياة اليمنيين ، وهكذا أصبح فى بلاد اليمن بعد ظهور منصور اليمن سنة ٢٦٨ هـ أربع ولايات : الزيادية فى زبيد ، واليعافرة فى صنعاء ، وبنو الرس فى صَعْدَة والدولة الإسماعيلية تحت قيادة ابن حوشب « منصور اليمن » وعلى بن الفضل .

وقد أدّى هذا الاضطراب السياسى إلى كثرة النزاع بين الولايات ، أو بلغة أصح بين زعماء كل ولاية مما زاد الطين بلة ، ومهد لقيام الدولة الإسماعيلية التى ظهرت فى اليمن سنة ٢٦٨ هـ ، وسارت على قواعد من التنظيم البارع .

ونتيجة لظهور هذه الدولة واستيلاء الداعيين منصور

اليمن وعلى بن الفضل فيما بعد على معظم بلاد اليمن ، بالإضافة
إلى ما قام به أتباع الأئمة الزيدية من الحروب ، اضطربت
الأطراف على عامل العباسيين أبى الجيش ، وخرج زعماء
البلاد كل فى جهته ، ولم يسع أبا الجيش أمام هذه الاضطرابات
إلا مهادنتهم واعترافه بما تحت أيديهم ، وذلك خضوعاً واعترافاً
بسياسة الأمر الواقع . ولم يكن بُعد بلاد اليمن عن بغداد حاضرة
الدولة العباسية بأقل أهمية من العوامل السابقة لأن جماعات الشيعة
كانت تلجأ فى نشر دعوتها ومبادئها إلى الاستتار والبُعد عن
أعداء الدعوة بقدر الإمكان ، وباتخاذ الأقطار البعيدة مكاناً
لنشر هذه المبادئ وتعميمها ، وقد وجد دعاة الإسماعيليين
فى بُعد اليمن عن مركز الخلافة بغداد وسيلة لتنفيذ مشروعاتهم ،
حتى يمكن القول بأن هذا البعد ، بالإضافة إلى وعورة الطريق ،
وطبيعة بلاد اليمن الجغرافية المعقدة — كلها كانت من أهم الأسباب
التى حالت بين خلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش إلى
اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين ، واكتفى الخلفاء بأن
عهدوا إلى ولاتهم من جهة ، وتكليف زعماء البلاد من جهة
أخرى بالقضاء على هذا التيار الجارف ، تيار الحركة
الإسماعيلية ، ولكن الولاة كانوا من الضعف بمكان ، وكان
تنازعهم الدائم مع زعماء البلاد المتنافرين من أهم العوامل

التى ساعدت على انتشار الحركة الإسماعيلية ؛ ولهذا كان
لعلى بن الفضل الحق بأن يقول عندما عرض عليه الإمام
الفاطمى « الحسين بن أحمد بن عبد الله » أن يقوم ببث
الدعوة باليمن : « والله إن الفرصة ممكنة فى اليمن ، وإن الذى
تدعون إليه جائز هنالك » . هذا ...ومن الواضح تاريخياً
— كما ذكرنا — فى أكثر من كتاب ، أنه كان لدعاة الإسماعيليين
خبرة ودراية باختيار الرجال ، بقدر خبرتهم باختيار الأمكنة
الملائمة لنشر التعاليم ، فاتخذوا من مواعيد الزيارة للكوفة ،
حيث ضريح الإمام الحسين بن على ، وسيلة لبث مبادئهم
وفلسفة عقائدهم ، فهناك ظفروا بمنصور اليمن الذى ينسب
إلى عقيل بن أبى طالب وكان يدين بمذهب الإمامية
الاثنى عشرية ، فتمكن الإمام « الحسين بن أحمد بن
عبد الله » من تحويله إلى الإسماعيلية فى فترة وجيزة ، وهو
القائل : « وكان الإمام يخصنى ويقربنى ويرمز بقرب الأمر
ودنو النصر » ، فقال له : يا أبا القاسم ؛ البيت يمانى ،
والركن يمانى ، والدين يمانى ، والكعبة يمانية ، ولن يقوم
هذا الدين ويظهر إلا من قبل اليمن ... يا أبا القاسم ؛ هل
لك فى غربة فى الله ؟ قلت : يا مولاى الأمر إليك فما أمرتنى
به امتثلته ، قال : اصبر كأنى برجل قد أقبل إلينا من اليمن

وما لليمن إلا أنت ، فقلت : استعن بالله على ما يرضيك .

وجاء على بن الفضل – وكان شاباً جميلا من أهل بيت تشيع ونعمة ويسار– إلى الكوفة سنة ٢٦٧ هـ ، فتمكن الإسماعيليون من ضمه إلى صفوف دعوتهم ، ثم مهدوا له السبيل فذهب مع منصور إلى اليمن ، ويروى التاريخ أن الإمام الفاطمى الحسين أوصى ابن حوشب منصور اليمن بوصيته المشهورة قبل ذهابه : إلى « عدن لاعة » فاقصد ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا ومنها تعز دولتنا ومنها تفترق دعاتنا .

ثم أمره بالاستتار والاعتماد على علم التأويل ، واتخاذ التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه ، وأن يقول بقرب ظهور المهدى ، وأن يجمع المال والرجال ، ويلزم الصوم والصلاة والتقشف ، وأن يعمل بالظاهر ولا يظهر الباطن .

وأوصاه أيضاً : إذا ورد عليك ما لا تعلمه فقل: لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره .

كما أوصاه بعلى بن الفضل خيراً بقوله : هو شاب قريب عهد بالأمر ، فانظر كيف تسوس أمره .

ثم قال لعلى بن الفضل : إن هذا الرجل الذى نبعث به معك بحر علم ، فانظر كيف تصحبه ، واعرف له حقه لا تخالفه فيما يراه لك .

أجل ... خرج الداعيان من الكوفة إلى القادسية فى نهاية سنة ٢٦٧ هـ . ويقول منصور : لما ودعت الأهل والأحبة متشوقاً إلى أقطاع الغربة توجهت ، فلما خرجت من القادسية أوجست خيفة ، ولكنى سمعت حادياً يقول :

يا حادى العيس مليح الزجر   بشرْ مطاياكَ بضوء الفجر

فسررت واستحسنت ذلك الفأل لمَّا سمعته . ثم وفيت مكه ، ومنها تابعت مع على بن الفضل السير جنوباً حتى وصلنا سنة ٢٦٨ هـ إلى بلدة « غلافقة » وكانت فى ذلك العهد بندراً لمدينة زبيد على ساحل البحر الأحمر .

ثم افترقا على أمل أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ليتعرف أحواله ، فاتجه منصور اليمن إلى مدينة « الجنَد » وكانت غايته « عدن لاعَة » . ولما وصل إليها سأل عن الداعى « أحمد بن عبد الله بن خليع » الذى كان قائماً بالدعوة الإسماعيلية قبله ، فعرف أنه مات بالسجن عندما قبض عليه الأمير ابن يعفُر ، فنزل فى داره وتزوج ابنته ، وهذا يدل على أن الدعوة الإسماعيلية قد تسربت إلى اليمن قبل وصول الداعيين . والتاريخ هنا واضح يشير إلى أن الداعى الإسماعيلى السورى الكبير أبا الفوارس الذى استوطن سواد الكوفة ، وقام بأعمال باهرة عظيمة هنالك قد أنفذ ولده

داعياً إلى اليمن ، فأظهر العجائب ، ودخل فى دعوته خلق عظيم . ثم مشى بالأقاليم فتحاً حتى أجلى بعض الأمراء عن حصونهم ومناطقهم ، ثم إنه قاتل « القاسم بن أحمد بن يحيى بن القاسم ابن إبراهيم الحسينى الهادى » ، وأزاله عن عمله من « صعدة » ففرّ منها بعياله إلى الرس ، وعندما أراد الجيش الإسماعيلى بقيادته وقتئذ إتمام مهمته بفتح البلدان والأقاليم ، أصيب وهو يجتاز إحدى المناطق الجبلية بالبرد والثلج ، فهلك أكثره فى ليلة واحدة ، وبعد ذلك مات الداعى الإسماعيلى الصناديقى ، وكان قد احتلّ أيضاً مدناً وقرى كثيرة ؛ وكان موته بسبب الفصد الذى أجراه له أحد الأطباء ، وكان قد أرسل من قبل القائم العباسى لهذه الغاية ، أمّا على بن زكرويه (صاحب الخال) ، وهو من دعاة القرامطة الإسماعيليين ، فقد فرّ من سواد الكوفة إلى اليمن ، وجمع صفوفه هناك ، ثم قام بالزحف على البلدان والأقاليم فتغلب على الكثير منها ، وأخيراً توفى فى اليمن قبل أن يتم رسالته .

يستدل من كل هذا على أن الحركة الإسماعيلية قديمة فى اليمن وقبل منصور وعلى ، وما هما بالحقيقة إلا متممان للبناء الذى أشاده غيرهما من الدعاة الإسماعيليين المؤسسين .

ومهما يكن من أمر فإنه لمن المفيد بمكان أن نأتى

بإيجاز على ما قام به الداعيان منصور اليمن وعلى بن الفضل من أعمال فى اليمن وما باشراه من حروب ، ثم كيف انتهى أمرهما أخيراً ؛ وذلك لعلاقته المباشرة بالموضوع . فمن الواضح أنهما قد نَهَجَا نهْجاً واحداً فى نشر دعوتهما ، وبعد عامين من وصولهما أصبح لكل منهما جماعة كبيرة تأتمر بأمره ، وتخلص له أشد الإخلاص ؛ وطبيعى فى مثل هذه الأحوال أن يصبح همّ كل منهما الحصول بعد ذلك على الأموال الكافية لتنفيذ الأغراض ونشر المبادئ والأفكار ، والاستيلاء على المراكز الهامة والمواقع الحساسة . فأصدر منصور أوامره بجمع الأموال وفق الطريقة المتبعة فى المشرق ، وهكذا فعل على بن الفضل وبعد فترة قصيرة تمكن منصور من احتلال « عبر محرم » ، ثم جمع جمعاً من أتباعه واستولى على جبل « الجميحة » ، وبعدها هاجم « بيت ريب » ، وهو رأس « مسوَر » ثلاث مرات حتى استولى عليه ، وكانت هنالك خطط مدبرة تقوده من نصر إلى نصر .

ويقول تاريخ اليمن إنه عندما استولى على جبل مسوَر من أعمال صنعاء ، كان معه ثلاثة آلاف محارب فبنى فى هذا الجبل حصناً وجعله قاعدة لشن الهجمات على المواقع الأخرى ، ومن ثم استمر فى زحفه حتى استولى على بلاد

« عيان » و« بنى شاور » و« حملان » ، ثم على « ذخار » وملك « شبام حمير » وجبل« كوكبان »؛ وهنا أقبل عليه الناس يدخلون فى طاعته طوعاً أو كرهاً، فانضوى الكثير من بنى يعفر . وملوك حمير فى الدعوة طائعين أو كارهين وقويت فى أرض اليمن دعوته ، وعلت كلمته .

و لم يقف نشاط منصور عند هذا الحد بل أرسل جيشاً لمساعدة ابن الفضل حين أحيط به قرب« تهامة » وكان من أثر ذلك أن عاد ابن الفضل سالماً إلى مركزه ، وكان قد احتل « لحج» و« أبين» ودخلت قبائل مذحج فى طاعته ، وأخيراً احتل « المذيخرة » سنة ٢٩٤ هـ ثم دخل حصن « التعكر »، ومنه جاء إلى بلاد « يحصب » فدخل «منكث» ثم هجم على صنعاء، ودخلها لأول مرة سنة ٢٩٥ هـ .

و لم يقف طموح ابن الفضل عند هذا الحد ، بل استمر فى فتوحاته حتى دانت له جميع بلاد تهامة وزبيد ، وفيها قتل عامل العباسيين يومئذ واسمه « المظفر بن الحاج » . ويصادف فى هذه الأثناء أن يكون الإمام « عبيد الله المهدى » قائماً بشئون الإمامة الإسماعيلية فى سلمية ــ سوريا ، وهذا الإمام وضع ثقته بمنصور اليمنى دون على ، فكان يخصه بكل عطفه ، ويعطيه المسئولية الأولى المباشرة عن شئون الدعوة فى اليمن معتبراً ابن

الفضل دونه فى الرتبة ، فكلفه إرسال الدعاة من قبله إلى الأقاليم الهامة ، فبعث منصور ابن أخيه الهيثم إلى السند حيث استقر فى ملتان ، وغرس فيها بذور الدعوة ، واستجاب له الكثير من أهلها ، وأرسل محمد بن عبد الله بن العباس داعياً إلى مصر ، فوزع الدعاة فى سائر أرجائها . وفى تلك الفترة بالذات أرسل الإمام المهدى إلى اليمن « أبا عبد الله الشيعى » فتتلمذ على منصور لعدة أشهر ، ومن هنالك ذهب إلى المغرب وبرفقته أبو الملاحف الذى عاد لفوره بسبب مرض والدته ، فسير مكانه إبراهيم بن إسحاق الزبيدى ، وكان منصور قد أرسل الداعيين أبا سفيان والحلوانى من قبل .

واستمر الداعيان منصور وعلى يعملان فى اليمن بهمة ونشاط حتى أصبح الجزء الأكبر منه خاضعاً لنفوذهما .

هذا ... ويحدثنا التاريخ أن الإمام المهدى لما أرسل الداعى ، « أبا عبد الله الشيعى » إلى اليمن ليتدرب على يد منصور أوصاه بقوله : « امتثل سيرته ، وانظر إلى مخارج أعماله ومجارى أفعاله فاحتذها وامتثلها واعمل عليها » فأقام عنده يشهد مجالسه ، ويأخذ منه ، ويخرج معه فى غزواته لا يفارقه حتى بعثه أخيراً إلى المغرب ، وكان منصور قد أرسل من قبله الداعيين الحلوانى وأبا سفيان إلى شمالى أفريقيا ،

ولما علم بوفاتهما قال لأبى عبد الله الشيعى : إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وليس لها غيرك الآن ، فبادر فإنها موطأة لك ممهدة .

هذا ... وللدلالة على أن اليمن كان لها أهمية كبرى بنظر أئمة الإسماعيليين ، أن الإمام عبيد الله المهدى حين هجر سلمية إلى المغرب ، فكر بأن يذهب إلى اليمن ويستقر فيها ويجعلها عاصمة لملكه ، ولكن انحراف على بن الفضل ، وخروجه على الدعوة ، جعله يعدل برنامجه ويتجه من القطر المصرى إلى شمالى أفريقيا .

ونعود لنذكر شيئاً عن مدى علاقة على بن الفضل بالأئمة الفاطميين ، وسبب خروجه فنقول : إن علياً لما استقر باليمن ظل على ولائه للدعوة الإسماعيلية فى سلمية ، وقد كان يظهر التقشف والورع والتقوى ، فكان نهاره صائماً وليله قائماً ، فأنس إليه وأحبه كل من عرفه ، ثم إن أتباعه قلدوه أمرهم ، وجعلوا حكمهم إليه ، وقد جاءوه مرة طالبين إليه أن ينزل من حصنه فى جبل « سروياقع » ويسكن بينهم فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال إلا أن يعطونى العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر ، ففعلوا له ذلك وحلفوا له على الطاعة ، وألا يخالفوه بما أمر فوعدهم خيراً .

ومن هذا نرى أن ابن الفضل ظل مدة فى بلاد اليمن على ولائه للدعوة الإسماعيلية وهذه المدة لاتقل عن عشرين عاماً.

وقد اتهم بعض المؤرخين ابن الفضل أنه أحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات ، كما أظهر المجوسية ، وكفر بما أنزل الله عز وجل ، إلى ما هنالك من أقوال وتهم لا مجال لها فى هذا الكتاب .

ومن المضحك المستغرب أنهم يروون أنه لما دخل « الجَنَد » خطب شاعره على منبرها فقال :

خذى الدف يا هذه والعبى   وغنى هزاريك ثم اطربى
تولّى نبىٌ بنى هاشمٍ   وهذا نبىٌ بنى يعرب
لكل نبى مضى شرعةٌ   وهذى شرائع هذا النبى
فقد حط عنا فروض الصلاة   وحط الصيام ولم يتعب
فلا تطلبى السعى عند الصفا   ولا زورة القبر فى يثرب

ومهما يكن من أمر فكل هذا لانراه جديراً بالبحث عن على بن الفضل . فنحن تهمنا فتوحاته ، وسبب إعلانه الاستقلال عن الدعوة الإسماعيلية وخروجه على رفيقه فى الجهاد.

من المعروف أن « على بن الفضل » كان ذا شخصية بارزة ، وقائداً بارعاً ، وحاكماً ناجحاً ، ووطنياً متحمساً ، فخوراً بقحطانيته ، ذا سياسة بارعة حكيمة فى السلم والحرب ،



وصاحب شهامة وإقدام وإيفاء للعهود والمواثيق وحماية المظلومين ونصرة مبادئ الحق .

و لم يستطع منصور اليمن أن يقلل من نفوذه ، أو يعزله عن الدعوة ، أو يطرده من اليمن وهو يعلم علم اليقين ميوله الاستقلالية وآراءه المتطرفة فى الحكم ، بل على العكس كان مضطرًا إلى مساعدته فى حروبه ، وتهنئته على انتصاراته ، حتى أعلن ابن الفضل نفسه ثورته وخروجه على الدعوة .

وقد يكون بعيداً عن الواقع أن يقبل المجتمع اليمنى رئاسة ابن الفضل مدة عشرين سنة أو أكثر لو أنه كان يرتكب ما نسب إليه من الفواحش ، وقد يجوز أنه بالغ فى يمنيته ، وتطرف فى قحطانيته ، حتى تعدى حدود الدين ، أو أن نفسه العالية أنفت أن ترضخ لحكم أحد ، أو تدخل تحت نفوذ أى إنسان ، بجانب إيثار الإمام عبيد الله المهدى منصور اليمن دونه . كل هذا — كما أعتقد — شكل الأساس لهذه القضية .

أما بالنسبة للدعوة الإسماعيلية فإنها عدته قد نكث العهد واستهواه الشيطان وأضله ، ففارق الدعوة ، وخرج من الملة ، وافترى على الله وعلى أوليائه ، مقتدياً بالمضلين من قبله الذين كانوا له شر أسوة ، واستمال الجهال فكانوا له الأنصار والأتباع ، وارتكب المحارم ، ومال إلى الإباحات ، وكفر بعد إيمانه ،

وباء بلعنة الله .

ولا يمكننا ونحن فى معرض الحديث والمقارنة أن نقارن ما قام به ابن الفضل إلى ما قام به زميله منصور اليمن الذى ظل على ولائه للأئمة الفاطميين حتى وفاته . فكان دائم الاتصال بهم فى جميع المناسبات . يتلقى أوامرهم ، ويستعين بإرشاداتهم ، متمسكاً بقوانين الدعوة ، مطيعاً لأوامر من هم أعلى منه رتبة فيها . قائماً بأداء واجباته المفروضة عليه فى سبيل دعوة آمن بها ، واعتقد بقدسيتها . بعكس ابن الفضل الذى ظل يخادع منصور اليمنى ويماطله ويقول له : « إنما أنا سيف من سيوفك » . والمنصور يهابه . ويخافه على نفسه لما يرى من شهامته وإقدامه . وتمشياً مع هذه السياسة أظهر منصور فرحه لما فتح ابن الفضل صنعاء سنة ٢٩٩ هـ ، واجتمعا وتشاورا فى فتوحهما . وكان منصور حذراً ويقظاً يرى أن وقف الحرب والفتوح من قبلهما فيه مصلحة كبرى لهما ، لأن نفوذهما فى البلاد التى فتحت لم يكن قد رسخ ، وكان يخاف أن يدخل فى حرب جديدة ، فتكون النتيجة خروج البلاد التى فتحوها من تحت أيديهم ، فقال لصاحبه ابن الفضل : قد ملكنا اليمن بأسره ، ولم يبق لنا إلا القليل ، فعليك بالتأنى والوقوف بصنعاء سنة ، وأنا بشبام فيصلح

كل واحد منا ما استفتح وبعد ذلك يكون لنا نظر ، فإنك إن خرجت من صنعاء خالف أهلها ، وفسد علينا . ماملكنا . ولكن ابن الفضل حارب مخاليف البياض بتهامة ، وكاد يقع لقمة سائغة فى أيدى أعدائه ، لولا أن أسرع منصور اليمن إليه ، وقدم المساعدات . كما سبق أن ذكرنا .

ولما تمكن نفوذ ابن الفضل ، وأضحى سيد اليمن الأول ، أعرب عما يجيش فى نفسه من رغبة ملحة فى تكوين دولة يمنية مستقلة عن العباسيين والفاطميين معاً . كما فعل أبوسعيد الجنابى الذى كون أول دولة إسماعيلية مستقلة فى البحرين ، فكتب إلى منصور قائلا : « إن لى بأبى سعيد الجنابى أسوة ، وأنت إن لم تنزل إلىّ ، وتدخل فى طاعتى ، نابذتك الحرب » .

فكتب إليه منصور يعاتبه ، ويذكره بالعهود والمواثيق التى أخذها عليه الأئمة ، كما ذكره بخطر التفكك ، كيلا يتلاشى أمر الدعوة الإسماعيلية باليمن . وقال فى كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيراً إلا ببركة الدعاء إليه وقد أعطيناه من العهود ما قد علمته ؟ فأجابه ابن الفضل بقوله : إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها .

وتابع منصور إرسال الرسل إليه يعظه ويذكره وينهاه ، ولكنه ظل على التمادى فى إنكاره ، وتناهى فى إصراره ،

وكان معنى ذلك بدء الصراع بين الداعيين الإسماعيليين فى اليمن أو بعبارة أصح بدء الصراع بين أهل الدعوة أنفسهم الموالين للفاطميين والخارجين عليهم ، كما أن معنى ذلك إنذار إلى منصور بأن يستعد للقتال ، فما كان منه إلا أن حصّن بلاده ، ولا سيما جبل مسوّر ، وعول على أن يلاقى الصدمة وحده ، لأن الخليفة الإمام عبيد الله المهدى الفاطمى لم يكن قادراً فى هذه الفترة ، وهو بشمال أفريقيا ، على إرسال أية مساعدة .

وقامت أخيراً الحرب بين الداعيين سنة ٢٩٩ هـ ، فاستولى منصور اليمن على شبام حمير ، وحاصر بلدة الظلمة ، حيث كان ابن الفضل وأتباعه ، وقطع الميرة عنهم حتى أصابهم الجوع الشديد ، فأكلوا لحم الحمير والجلود ، ثم أخذ يتتبعهم من مكان إلى مكان ، كما روى المؤرخ إدريس عماد الدين.

وكان بينهما بعد ذلك وقائع كثيرة وقتال شديد، ثم قوى أمر ابن الفضل أخيراً فلك صنعاء ، وتمكن فى النهاية من محاصرة المنصور ثمانية أشهر حتى مل المقام ، فلما علم المنصور بذلك طلب الصلح ، فقال ابن الفضل : لست أبرح — وقد علم أهل اليمن قصدى لمحاصرته — إلاأن يرسل إلى بعض ولده ، فيكون ذلك لى مخرجاً عند الناس ، ويعلمون أنه قد دخل فى

طاعتى . فأرسل إليه ولده ودفعه بالتى هى أحسن . فرجع ابن الفضل إلى المذيخرة وأقام عنده ولد المنصور سنة ثم رده أخيراً إلى أبيه .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الصلح لم يقض على النزاع بين الطرفين . بل زادت هوة الخلاف اتساعاً بين أتباع الدعوة الإسماعيلية فى اليمن نفسها . ومن ثم أصبح الجميع هدفاً لهجمات المنافسين لهم فى الحكم من الأمراء وطلاب الزعامات فى اليمن .

هذا ... وهناك قول يمكن الأخذ به عند بحث هذا الموضوع ، هو أن ابن الفضل إنما خرج عن طاعة منصور اليمن مدفوعاً بتأثير الداعى الإسماعيلى للقطر المصرى « فيروز » الذى زين له حب الرئاسة والزعامة والاستقلال بحكم اليمن وحده. ولكنه لم يتمكن من التغلب على أعدائه والانفراد بالزعامة ، وبذلك لم تتحقق مطامعه ، بل أخفق فى تكوين دولة ثابتة الأركان تصمد أمام العواصف والأنواء . فظل لذلك حتى قتل مسموماً بيد أحد الأطباء سنة ٣٠٣ هـ .

وبعد وفاته زحف الأمير أسعد بن أبى يعفُر إلى صنعاء وحارب أتباعه وقتلهم واحداً إثر آخر ، ثم أرسل رءوسهم إلى مكة حيث عرضت فى موسم الحج ، أما منصور

فبقىَ أميناً على عهده للفاطميين . ولكن مركزه تضعضع ، فالتجأ إلى مسورَ . وأقام مع أتباعه فى الأماكن الحصينة النائية يدافع عن نفسه دون أن يستطيع التقدم خطوة واحدة ، متخذاً التستّر والتقية و كتمان السر طريقة له فى نشر دعوته ، حتى وافته المنية سنة ٣٠٦ ه .

خلفاء منصور وابن الفضل

من الجلى الواضح أن ثورة ابن الفضل على الدعوة الإسماعيلية ، كانت من أهم العوامل التى أدت إلى إضعافها . وشلّ نشاطها وتقدمها . وذلك لأن أعداء الدعوة والمتربصين بها اتخذوا من الحرب الداخلية فرصة لشن الهجوم على أنصارها كافة ؛ وعندماظفروا بهم أعملوا فيهم القتل والنهب والتهجير ، وزادت الأمور تعقيداً بعد وفاة منصور اليمن ، فقد برز إلى المجال الاختلاف الذى وقع بين أبنائه و بعض الدعاة على المنصب . ومن المعلوم أن المنصور قبل وفاته رشح « عبد الله الشاورى » للقيام بشئون الدعوة بعد وفاته . وذلك بكتاب أرسله إلى الإمام « عبيد الله المهدى » فى المغرب ، فى حين أن ولده « حسن » كان يعتقد أن هذا الأمر بعد وفاة والده صائر تلقائياً إليه ؛

فطلب من الإمام المهدى تعيينه مكان أبيه . ولكن الإمام عبيد الله أمّر عليها الشاورى الذى تتلمذ و تمرن على يد منصور ، وعمل معه فى حياته . ثم أرسل إلى مصر . ولاقى فيها نجاحاً كبيراً .

وقد كان هذا الاختيار حافزاً للحسن بن منصور فأقدم على قتله ثم أعلن خروجه على الدعوة أيضاً . ثم جرّد جيشاً وأعمل قتلا و تهديماً بالبناء . الذى شاده والده . وهذا العمل شجع أعداء الدعوة مرة ثانية فجاءوا إليه وقتلوه . كما أنه لم يسلم من أسرته إلا من استطاع الفرار أو الاستتار أو النجاء ؛ أما ولده الثانى جعفر بن منصور فقد ذهب إلى القيروان . واستقر فيها تحت لواء الإمام القائم سنة ٣٢٢ ه . وقد وصل إلى درجة عالية فى مراتب الدعوة . وحاز مكانة وصفت بأنها على جانب كبير من الأهمية . وخاصة فى عهد الإمام المعز سنة ٣٤١ ــ ٣٦٥ ه .

هذا .. ومن الثابت أن الرياسة بعد وفاة منصور قد انتقلت إلى غير بيته ، فتعاقب على شئون الدعوة الإسماعيلية تسعة دعاة . وهى الفترة التى وقعت ما بين عهد منصور اليمن وظهور الصليحيين وتعد هذه الفترة من أكثر الفترات غموضاً فى تاريخ اليمن .

والآن نورد أسماء الدعاة الإسماعيليين الذين تعاقبوا على شئون الدعوة الإسماعيلية فى اليمن بعد منصور حتى ظهور الدولة الصليحية الأولى أى من سنة ٣٠٣ هـ إلى سنة ٤٣٩ هـ . وكل هذا له علاقة مباشرة بموضوعنا .

١ — عبد الله بن عباس الشاوري :

كان تلميذاً لمنصور اليمن . قدم على الإمام الفاطمى عبيد الله فى القيروان قتل غيلة بيد الحسن بن منصور اليمن سنة ٣٣٦ هـ . وذلك فى عهد الإمام المنصور الفاطمى . عمل مدة فى مصر . ونشر فيها مبادئ الدعوة الإسماعيلية بنجاح .

٢ — يوسف بن موسى بن أبى طفيل :

تولى رئاسة الدعوة الإسماعيلية باليمن فى عهد الخليفة الفاطمى الإمام المعز لدين الله . قتله إبراهيم بن عبد الحميد السباعى .

٣ — جعفر بن أحمد بن عباس :

يعتقد أنه ابن أخى عبد الله بن عباس الشاورى الذى مر ذكره .

٤ — عبد الله بن محمد بن بشر :

كان داعياً للإمام العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى . وهو من وادى قطابة من قدم .

٥ — محمد بن أحمد بن العباس :

هو من شاور . ويقال إنه أخو جعفر بن أحمد بن العباس الشاورى . ولعله كان قائماً بالدعوة فى عهد الإمام الفاطمى العزيز بالله أيضاً .

٦ — هرون بن محمد بن رحيم :

كان داعياً فى اليمن فى عهد الإمام الفاطمى الحاكم بأمر الله . وقد أرسل إليه سجلا سنة ٣٩١ هـ . وربما كان قد أدرك عهود الأئمة الثلاثة : المعز والعزيز والحاكم .

٧ — يوسف بن أحمد بن الأشبح :

هو من أهل شبام حمير .. كان من دعاة الحاكم بأمر الله . والمسئول عن اليمن بعد هرون .

٨ — سليمان بن عبد الله بن عامر الزواحى :

هو من ضلع شبام من حمير . كان المسئول عن الدعوة فى اليمن فى عهد الإمامين الحاكم والظاهر . وقيل إنه أدرك الإمام المستنصر بالله . وكان يقيم فى حصن كوكبان .

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الدعاة قاموا بأعمالهم فى سبيل نشر المبادئ الإسماعيلية فى القطر اليمنى فى عهد يطلق عليه المؤرخون اسم عهد المحنة والشدة ، يدلنا على ذلك فقدان المصادر والأخبار التى لا تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا .

ولكن لابد من القول إن هؤلاء المجاهدين استطاعوا أن يحافظوا على أسس الدعوة الإسماعيلية وتراثها العلمى ، برغم الصعوبات التى حاقت بهم ؛ وقد ساعد على بقائهم طبيعة بلاد اليمن الجبلية الوعرة ، حيث كانوا يتخذون من الحصون المنيعة النائية ، ومن الجبال العالية ، وسيلة للتستر والابتعاد عن الأعداء ومكامن الخطر .

والخلاصة : أن كل هذه الأحداث كانت تتمخض عن ظهور شخصية قوية تجمع شمل الإسماعيليين فى اليمن تحت لواء واحد ، وتربطهم برباط متين ، فى ظل دولة موحدة قوية تقوم على دعائم متينة من العلم والفلسفة والعقل والتنظيم ، وهذه الشخصية هى : « على بن محمد الصليحى » ، رأس أسرة الصليحيين الإسماعيليين الذين كتبوا فى تاريخ اليمن السعيد أنصع الصفحات ، واستطاعوا أن يكوّنوا من الضعف قوة ، فيحكموا اليمن حكماً أنموذجيًّا جديداً ، يقوم على أسس من العدالة والحرية والمساواة .

الدولة الصليحية

العهد الأول

الملك على الصليحى

كانت اليمن فى القرنين الرابع والخامس الهجريين فى حالة من التدهور والتفكك . ففى خلال تلك المدة استولى الموالى على الأقاليم اليمنية ، واستبدوا بالحكم ، وعاثوا فساداً وظلماً ، وبالرغم من أن « الحسين بن سلامة » تمكن فى مدة ولايته من الحفاظ على دولة بنى زياد ، فإن استبداد الموالى الحبشيين بالحكم مكنهم من تأسيس الدولة النجاحية فى زبيد سنة ٤١٢ هـ على أنقاض دولة بنى زياد . فكانت لها تهامة وزبيد ، وكان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التى حفزت العرب إلى الانتقاض وعدم الخضوع لدولة الأحباش ، فكان من جراء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت الحسين بن سلامة ، وأصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير ، وعمت الفوضى المناطق ؛ وأعلن العصيان فى القلاع والحصون ، والاستقلال فى المناطق والأقاليم . فكان مخلاف

جعفر يضم جبلة . وإب . والعدين . والمذيخرة . وذى سفال؛ ومخلاف المعافر يضم تعز وجبا وغيرهما . ومخلاف الجند وحصن السمدان لآل الكرندى . وكانت لهم مكارم ومغافر وسلطنة ظاهرة . أما عدن وأبين ولحج وحضر موت والشحر فقد استولى عليها بنو معن سنة ٤١٢ هـ ، وتغلب أسعد بن وائل على مخلاف وحاظة ومن مدنه شاطح . وامتلك بنو عبدالواحد مخلاف يربوع . وأهم مدنه الغَمْد وبُرع وحصن مسار . واستولى بنو أصبح على حصون حب . والشحر والسحول . ثم استولى على حصن وُصاب ومخاليفها قوم من بكيل ثم من همدان .

من هذا نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع شملها تحت لواء واحد ، بل كانت إمارات صغيرة متفرقة يأكل القوى منها الضعيف . أو بلغة أصح قل : إن السلطة كانت موزعة بين الأمراء والزعماء المتباغضين المتنافرين . وجميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلا رباط إقامة الخطبة للخليفة العباسى . وضرب السكة باسمه . وإعلان الولاء له ولو بالظاهر .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٤٨ هـ عم الخراب صنعاء وغيرها من مدن وبلدان اليمن بسبب الخلافات والنزاع والظلم وفساد الأحوال . وتوالى على

العاصمة « صنعاء » الدمار وقل الخير . واضمحلت المدينة حتى قيل إن دورها أصبح عددها ألفاً بعد أن كان مائة ألف .

فى هذا الجو المكفهر الحالك المضطرب ، وفى تلك الأحوال السياسية المتقلبة ظهر « على بن محمد الصليحى » رأس الأسرة الصليحية التى تنتسب إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز . وكان علىّ كما وصفه ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » « شابّاً أشقر اللحية . أزرق العينين ، وليس فى اليمن . فى ذلك الوقت . من يماثله فى ذلك » . وكان والده القاضى محمد الصليحى مسلماً سنيّاً شافعى المذهب حسن السيرة مطاعاً فى أهله وجماعته . لا يخرجون عن أمره ولا يعصون قوله . أما المؤرخ عُمارة فقال : كان أهل حراز أربعين ألفاً يدينون له بالطاعة .

نشأ علىّ نشأة طيبة . فى بيئة عربية عريقة . لها تقاليدها فى الأخلاق الفاضلة والعادات الطيبة السمحة . وقد أورد عمارة فى تاريخه أنه قد ظهرت عليه مخايل النجابة . ودلائل الفضل والعزة وطموح النفس . ويروى أنه أقام يحج بالناس على طريق السراة والطائف خمسة عشر عاماً . وكان الناس فى أول ظهوره يقولون له : قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن ودولة » .

إن أولى فتوحات على الصليحى كانت استيلاءه على مدينة زبيد ، وفى تلك الفترة أحب الأمير الشاب ابنة عمه السيدة الحرة الأميرة أسماء بنت شهاب الصليحية . وقد أورد المؤرخ عمارة فى تاريخه قصة زواجها فقال :

كان على باب زبيد من داخل السور دار رجل من الحبشة يقال له « فرج السحرتى » وكان من أهل الفضل والأخلاق الرفيعة والصدقات والمعروف ، فخرج ذات ليلة فمر برجل يقرأ القرآن . فسأله عن العشاء ، فأنشد قول الشاعر المتنبى :

من علم الأسود المخصىّ مكرمة أعمامه البيض أم أخواله الصيد؟!

فأخذه الحبشى وطلع به إلى أعلى مكان فى داره ، وأكرم مثواه . واستخبره عن سبب قدومه إلى تهامة . فقال على الصليحى : إن لى عماً يقال له شهاب ، وله ابنة يقال لها أسماء ، قليلة النظير فى الجمال . معدومة المثل فى العقل والأدب . وقد خطبتها إليه ، فاشتط على فى مهرها ، وأمها تقول : لا تزوجها إلا بعض ملوك همدان بصنعاء ، أو أمراء بنى الكرندى ، بمخلاف جعفر ، وقد استاموا على من المال مبلغاً لا قدرة لى عليه ، وأنا متوجه إما إلى بنى معن بعدن ، وإما إلى بنى الكرندى بالمعافرة .

وهنا يقول عمارة : إن السحرتى دفع له مالا جزيلا أضعاف ما أدّى . وجهز العروسين بجهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم ، وأعاده إلى عمه حيث زوجه أسماء .

وذكر الأزدى فى كتابه الدول المتقطعة قوله : وكانت أسماء من أعيان النساء . وكان الصليحى يثق بها ثقة عمياء لكمالها . وقد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة ، ولم يخالف فى أغلب أمورها . ويجلها إجلالاً عظيما . وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين . وفوق كل هذا كانت من حرائر النساء .

وزاد على قوله : وكانت من الكرم والسؤدد ، تمنح الجوائز السنية الجزيلة للشعراء . والصلات الواسعة فى سبيل الله تعالى وفى سبيل الخير والمروءة . بحيث يمدح أولادها وإخوتها وبنو عمها بمفاخرها .

ونعود إلى ما قبل هذا لنقول : إنه لما انتقلت رئاسة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن إلى الداعى سليمان بن عبد الله الزواحى شرع يلاطف القاضى محمد الصليحى والد على . فكان يذهب إليه كثيراً لرئاسته وسؤدده ، وصلاحه وعلمه . وكان سليمان كلما ذهب إلى القاضى . ورأى ولده علياً . لاحظ عليه مخايل النجـــابة والذكاء . ودلائل الفضل

والشجاعة ، وهو فى أوان الاستجابة للدعوة الإسماعيلية ، وكان يومئذ دون البلوغ ، فأخذ الداعى يتصل به ، ويطلعه على ما عنده من أخبار وآمال ومشروعات كبار ، حتى استماله ، وغرس فى قلبه ولبه العلوم والآداب ومحبة المبادئ الإسماعيلية .

ولما اطمأن الزواحى لرسوخ تعاليمه فى نفس تلميذه على جعله خليفته فى الدعوة بعد أن وافق الإمام الفاطمى المستنصر بالله على ذلك . وبهذا تمكنت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن من إحراز نصر باهر فى مجال الدعاية بأن ضمت إلى صفوفها شاباً من خيرة شباب اليمن ، ومن أشدهم غيرة وحماسة .

أجل ... إن الداعى الإسماعيلى سليمان الزواحى تمكن بما أوتى من قدرة وسعة علم ، ولباقة فائقة ، وطلاوة فى الحديث ، من إدخال الشاب على الصليحى فى الدعوة ، وإقناعه بضرورة الحرص عليها . كما نعتقد أنه لم يلاق صعوبة فى جذبه إليه بالنظر لما أبداه على من رغبة صادقة فى الاستمرار والتقرب من أستاذه المفيد ، وكل هذا بفضل فطنته وذكائه الذى ظهر فى سن مبكرة ، مضافاً إلى ذلك أن عزم على واجتهاده وحرصه على ألا يفلت منه هذا الأمر جعله ينكب على دراسة الدعوة التى زوده بها الزواحى ، وآلت إليه بعد موته ، وكان قد أوصى بها مع مبلغ كبير من المال تركه له . وكل هذا

يدل دلالة واضحة على نضج فكرة الدعوة الإسماعيلية وأصولها وتعاليمها فى عقل هذا الشاب الذى قدر له فيما بعد أن يلعب دوراً هاماً فى تاريخ بلاده اليمن . ومما هو جدير بالانتباه أن ذكاء على الصليحى كان من أهم العوامل فى إنجاح مشاريعه ، ووصوله إلى مركز الزعامة . فلم يكد يبلغ الحلم حتى تضلع فى معارفه التى بلغ بها ، وبالجد السعيد، غاية الأمل البعيد ، فأصبح كما قال عمارة : عالماً فقيهاً فى الفلسفة ، مستبصراً فى علم التأويل ... وقد أدت معارفه إلى أن ينهج نهجاً جديداً ، وأن يسلك طريقاً تخالف طرائق من سبقه من الدعاة فى اليمن فى بث دعوته ونشر مذهبه . فاتخذ ميدان الحج حقلا لغرس مبادئه وتنميتها ، وصار يحج بالناس عن طريق السراة والطائف نحواً من خمس عشرة سنة . فسار ذكره فى البلاد على لسان الخاصة والعامة .

ومن الملاحظ أن هذه المدة الطويلة التى مرت بين موت الزواحى إلى قيام الصليحى بثورته فى مسار تقرب من خمسة عشر عاماً . فهى بلا شك كافية لصقل علىّ وإنماء معارفه وتجاربه ، وتكوين جماعة تدين له بالطاعة والاحترام والإخلاص .

ولا يخفى أن طلاب السلطة يراعون دائماً جانب العامة .

فهم السواد الأعظم فى كل مجتمع يحسبون لهم كل حساب ، ويتقربون إليهم بما يرضيهم . ولما كان الدين هو جامعتهم الكبرى ، ومن أكبر أسباب سعادتهم ، تمسك الصليحى بالعقيدة الإسلامية وبالمثل العليا ، و لم يكن يبوح بعقيدته الأصيلة إلا لمن يثق به ، و لم تكن دعوته فى أول الأمر للأمراء ، وعلية القوم وأصحاب المصالح ، لأنه كان يعلم تماماً أن هؤلاء سيحاربونه بأى حال من الأحوال ، ولكنه اتصل بالعامة والمتحمسين منهم للدين ، وهم طبقة الحجاج ، فكأنه دخل بدعوته فى هذا الميدان متشحاً ومتجملاً بالدين وبمحاسنه ، وهو متحقق أنه لا بد من أن يستميل إليه أعواناً أوفياء ، ولو طال به الزمن ، مادام متمسكاً بالدين . ولما كان الصليحى من طلاب السلطة المطلقة وجد أنه لا يمكنه أن يستغنى عن العامة ، لأنهم السواد الأعظم فى الرعية ، وبهم تجبى الأموال ، ومنهم يتألف الجيش ، ومن استطاع كسب ثقتهم وجذب قلوبهم ملكوه . ولا يجتذب قلوب العامة فى تلك العصور مثل الدين ، فإذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة وخاصة فى محيط عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب الدين ومحافظتهم على التراث القديم .

أجل ... عرف على الصليحى هذا كله وعرف أنه

لابد له من التطلع إلى آماله من زاوية خاصة ، فدأب على تحقيق هذه الآمال بصبر وتؤده ، وهو يعلم أنها كفيلة بنجاحه ووصوله إلى تحقيق أغراضه . وجاء موسم الحج فى سنة ٤٣٨ ﻫ ، فكان بمثابة عهد جديد فى إنجاح حركة الصليحى ، حيث بايعه ستون رجلا من قبيلة همدان ، وعاهدوه على الطاعة والموت أو الظفر بقيام الدعوة ، وعلم كل واحد منهم أنه جندى فى سبيلها يبيع نفسه بيع السماح عندما تأزف الساعة الرهيبة ، وتضافرت القوى على نصرة الدعوة بالأنفس والمال ، ويعد كل هذا نصراً أكيداً للدعوة الإسماعيلية من غير شك ، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا فى عزة ومنعة من قبائلهم . وهذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من اعتماد الصليحى على فئة العامة ، وبخاصة أن أكثرهم كانوا من قبيلة همدان القوية العزيزة الجانب التى بلغت شأواً بعيداً فى اليمن ، وهابتها جميع القبائل وحسبت لها حساباً ، وقد كان هذا الانضمام عاملا كبيراً ومشجعاً لمن كان متردداً من المستجيبين ، وباعثاً للكثيرين من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الإسماعيلية .

وهنا نستطيع أن نقول : إن على الصليحى بعد أن وصل إلى هذه النتيجة ، وبعد إحرازه هذا النصر الأكيد ، تمكن من تكوين جماعة مخلصة وإن تكن صغيرة ، وقد

أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة . فكان أول عمل قام به هو استيلاؤه على حصن مسار وتعميره وجعله مركزاً لدعوته وقاعدة لحروبه . ولكن هذا المشروع كان يقتضى الحيطة والاستعداد . ولهذا أخذ يستعد للثورة ويهيئ لها كل شيء . وساعدته الظروف إلى حد كبير . حتى كون جيشاً قوياً من بطون همدان ، وهو وأنصاره مقتنعون بصدق الوعد الذى بشروا به ؛ واستقر فى قلوبهم أن مواجهة الصعاب تقتضى الشجاعة والثقة بالله وبالإمام الذى وعدهم بالنصر الأكيد أينما توجهوا .

ولقد بذل الصليحى وأصحابه جهداً كبيراً لجمع الكلمة وتوحيد الهدف . فتمكن بفضل ما أوتى من شخصية قوية نادرة أن يتغلب على هذه المشكلة بأن جعل أتباعه يعتقدون أنهم يحاربون لنصرة الإمام وإعلاء كلمة الله . وليس لأمر من أمور الدنيا. فكتب له ما تمنى من التوفيق . وكتب إلى إمامه بمصر الخليفة المستنصر بالله يطلعه على عزيمته وما قرره، وأخذ رأى مستشاريه وأعوانه . وعاهد أصحابه . ومن صحت فى نفوسهم دعوته . على الوفاء وتطبيق سنن العدالة . وتشاء الظروف أن تمهد له الأسباب فيعقد اتفاقاً مع الهمدانيين على الوصول إليه فى يوم معلوم .

وعندما شاع الخبر فى أرجاء اليمن بأنه يستعد للثورة والقتال ، وأنه ينتظر مساعدات وأوامر الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ، ازدادت نقمة الأعداء على أهل دعوته وأتباعه . فوثب « ابن جَهْوَر » صاحب لهاب فى حراز على الإسماعيليين الذين بناحيته . وأسر القاضى لمك بن مالك الحمادى وعدداً كبيراً منهم . فضاق الأمر على الصليحى وكان ينتظر أن يكون جواب الإمام الفاطمى المستنصر بالله موافقاً ومشجعاً . لأنه لا يعقل أن يعارض بحال من الأحوال أمراً يستهدف نشر دعوته وإعلاء كلمته ، وبخاصة أن ذلك لن يكلفه إلا الموافقة وتشجيع الطالبين على الاستمرار فى العمل ومباركتهم . ولكى يبرهن الصليحى على صحة حلمه أمام المستجيبين له لدعوته تفاءل بالنتيجة. واستبشر بذلك. وأظهر الفرح وقويت عزيمته . وبث هذه الروح فى قلوب أتباعه وجد فى الاستعداد لتنفيذ خطته . فأرسل إلى أهل دعوته وأنصاره أينما كانوا رسلا يحثهم على الوصول إليه . كما أخذ يبتاع العدة والعدد . وخفّ لمقابلته كبار أهل الدعوة فى نواحى حراز ، وهم يستعدون لخوض المعركة المصيرية . ووافاه من أراضى يام من همدان . ومن نواحى صنعاء ، ومن أرض حمير ثلثمائة رجل عدا من جاءه من نواحى حراز . فلما صاروا



بحضرته أطلعهم على ما عقد عليه العزم ، وطلب إليهم أن يوافوه فى يوم معلوم ، وأخبرهم عن عزمه على عمارة مسار ، وإعلان دعوة الإمام الفاطمى المستنصر بالله . فوافقوا ، واستقر رأيهم على الجهاد . وأيقنوا بالظفر والغلبة . و جمعوا ما استطاعوا من العدة ، وتواصوا ببذل النفوس والأموال فى طاعة الله ورسوله والإمام . وبدأ الأغنياء يرسلون الأموال إلى الصليحى لتمويل الثورة وشراء الأسلحة . ولما تمت الاستعدادات والتجهيزات أرسل أربعين رجلا من هوازن ، وأمرهم أن يسيروا إلى مسار وأن يلزموا ذروة الجبل . كما أمرهم أن ييمموا وجوههم شطر صعفان . بعد أن علم أن أهل مسار قد تأهبوا لقتاله وحصنوه من كل جهة . وقد علم بذلك الصليحى عن طريق بعض أعوانه الذين تسللوا إلى قمة مسار ، وعرفوا ما يجرى هنالك . فعادوا وأخبروه . وهنا رسم خطته للاستيلاء على قمة هذا الجبل المنيع الذى يعد من المواقع الاستراتيجية ذات الأهمية الحربية فى اليمن .

وفى سنة ٤٣٩ هـ جد فى السير . وكان قصده احتلال الموقع المشار إليه . وعندما وصل إلى عُبرى سهام طمع أهل مسار فى محاربته فى هذا المكان . ولكنهم لم يتمكنوا ، فاتجهوا إلى قمة الجبل ليعتصموا بها ، فوجدوا أن أهل هوازن

قد ملكوها . فاضطروا إلى الحرب . وصعد الصليحى وملك الجبل . ونشر على ذروته أعلام الإسماعيليين دون أن يشتبك مع أحد فى قتال . ولكن لم ينتصف ذلك اليوم حتى أحاط به عشرون ألف محارب جاءوا من مختلف الجهات وأنحاء البلاد لقتاله . وطلبوا إليه النزول . وهنا تجلت حكمته وعقله وبعد نظره بالأمور وبالسياسة . فقال لهم : إننى لم أقدم على هذا الأمر إلا لكى أحرس لكم الجبل خوفاً من أن تأتى قوة خارجية وتستولى عليه . والآن فإن شئتم نزلنا وتركناه . وإن شئتم كنا له الحراس الأمناء . فقنع الرجال المحاربون وفوضوه بالمحافظة عليه وانصرفوا عنه . وفى تلك الأثناء عادت رسله من مصر حاملين أوامر الإمام الفاطمى المستنصر بالله بإقامة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن . فقرأ الكتاب على أتباعه . وأخذ نفوذه يزداد . وبدأت الأموال ترد إليه من جميع الجهات وهذا ما جعله يقوم بعمارة جبل مسار ويجعل له الدروب والبيوت .

ونورد هنا المنشور الذى أذاعه الصليحى على أهل حراز بعد استيلائه على جبل مسار :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذى أورى زناد الحق ، ورفع عماد الصدق ، بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق . وأنارهم ما بين الغرب والشرق . الهداة إلى الخير والأدلة . الدعاة إلى أشرف المنهاج والملة . خلفاء أنبيائه وأمنائه وأصفيائه . وسلالة رسله من لدن آدم عليه السلام . ووصل نظامهم . وأعلى مقامهم وفتق بالنور أيامهم . ونشر بالعدل أعلامهم . فهم أعلام الدين ، والدعاة إلى الحق المبين . الشيعة الميامين . والسلالة الطيبين . آل طه ويس .

وصلاته على من ختم به الرسالة ، وفتح بالأئمة من عقبه أبواب الدلالة . سيدنا محمد النبى . وعلى أخيه ووصيه على ، وعلى الأئمة من نسل الحسين الزكى . ورثة التنزيل وعلى وخزنة التأويل .

وأفضل صلاته وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم ، والقائم من بعدهم ، بقية السلف وخيرة الخلف : مولانا معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه خلفه وسلفه .

أما بعد يا أهل حراز ! ألهمتكم الله رشدكم ، وجعل

الجنة قصدكم فلم أطلع إلى حصن مسار متجبراً باغياً ، ولا متكبراً على العباد عاتياً ، ولا أطلب الدنيا وحطامها ، ولا طالباً أملاك غوغاءها وطغامها . لأن لى بحمد الله ورعاً يحجزنى عما تطمح النفوس إليه . وديناً أعتمد عليه .

وإنما قيامى بالحق الذى أمر الله عز وجل به . والعدل الذى أنزله فى محكم كتابه . أحكم فيه بحكم أوليائه . وسنن أنبيائه وأدعو إلى حجته الذى فى أرضه . والقائم بفرضه . لست من أهل البدع . ولا من ذوى الزور والشنع الذين يعملون فى الدين بآرائهم . ويحكمون بأهوائهم ؛ بل أنا متمسك بحبل الله المتين . عامل بما شرع الله فى الدين . وداع إلى أمير المؤمنين . عليه صلوات رب العالمين لا أقول إلا سدداً ولا أكره فى الدين أحداً . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . وما الله يريد ظلماً للعباد .

واعلموا . يا أهل حراز ! أنى بكم رؤوف . وعلى جماعتكم عطوف ، للذى يجب على من رعايتكم وحياطتكم . ويلزمنى من عشرتكم وقرابتكم ، أعرف لذى الحق حقه ، ولا أظلم سابقاً سبقه . وأنصف المظلوم وأقمع الظالم الغشوم . وأبث فيكم العدل . وأشملكم بالفضل . فاستديموا ذلك بالشكر ، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر ، الذين من بقايا أهل الكفر .

فيحملوكم من ذلك على البغى والعدوان . والخلاف والعصيان ، وكفر الإنعام والإحسان . تستوجبوا بذلك تغيير الإنعام ، وتعجيل الانتقام . وكتابى هذا حجة عليكم ومعذرة إليكم . والسلام على من اتبع الهدى ، وتجنب أمور الردى .

والحمد لله على ما أعاد وأبدى . وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى ، سيدنا محمد النبى وآله الأئمة الشهداء ، وسلم تسليما . حسبنا الله ونعم الوكيل » .

° ° °

مما لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ الصليحى . وانتشار أمره بهذه السرعة استفز جماعة من زعماء اليمن . فأعلنوا خوفهم من عاقبة تلك الانتصارات التى يحرزها الصليحى فى كل يوم . وكان أن قام جعفر بن القاسم بن على العيانى صاحب صعدة فى جمع كبير من أصحابه . وهاجم حصن الأخروج . وقاتل أهله ، وكان عليه الحسين بن مهلهل من أصحاب الصليحى وجماعة من همدان وبنى شهاب . وانتهز هذه الفرصة أيضاً جعفر بن العباس الشاورى صاحب مغارب اليمن الأعلى ، فقام على رأس جيش كثيف من حراز وكرار وغيرهما من أهل الشدة والبأس . وقصد عبْرى أسفل جبل مسار ، وأراد الصعود إليه ، فنزل أنصار الصليحى

يدافعون عن بقائهم ، وعن نصرة مبادئهم ، لأن الانتصار معناه البقاء لدولتهم الناشئة ، أما الهزيمة فمعناها الفناء التام والقضاء المبرم .

ولما تكاثر القوم على جيش الصليحى . خشى الهزيمة وما يترتب عليها من سوء العاقبة ، فنزل بنفسه ومن بقى معه من القوى الاحتياطية واستمد من الحرج قوة . فشد بذلك عزم أتباعه . وحمى وطيس القتال . وأخيراً ربح الجولة ؛ أما جيش ابن عباس فقد لاذ بالفرار مغلوباً على أمره ، ولكنه ما لبث أن رجع وثبت فى المجال طمعاً فى النصر فكان جزاؤه هذه المرة القتل هو ومن معه من الأتباع . وغنم الصلحى وأصحابه الكثير من السلاح والأمتعة والعدة ، فقوى بذلك مركزهم وزاد نفوذهم . وارتفعت روحهم المعنوية ، وخافهم من كان يترقب من القبائل نتيجة هذه المعركة . وفى هذه الأثناء اضطر الشريف جعفر بن القاسم — أمام مقتل حليفه ابن العباس وهزيمة جيشه — أن يترك حصن الأخروج وينجو بنفسه ؛ وكانت هذه التجربة اختباراً لقوة الصليحيين وتعاونهم وتمسكهم بمبادئهم ، كما أن شخصية الصليحى وجلال قدره وحسن بلائه فى تأييد أمره أسكن النفوس الغاضبة . فسار بالأمر قدماً ، واستولى على « حضور »

وأخذ حصن « بتاح » وخاف أهل حراز النزال ، فقرروا الدخول فى طاعته إلا ابن جهور . فقد صمم على الاستمرار فى المكابرة . واعتصم بحصن لهاب . فاضطر الصليحى إلى تكليف القائد الإسماعيلى الكبير عامر بن سليمان الزواحى أن يصعد جبل شبام وبيت عناد ومعه جماعة من بنى قليد وهوازن وبنى الهجرى . ثم وصل أحمد بن المظفر الصليحى وجماعة من الحجازيين . وفيهم عباس بن الكرم ؛ فعمروا داراً فى قمة جبل شبام . كما عمروا جبل بيت عناد استعداداً لمقاومة ابن جهور .

وبعد أن تحصنوا فى هذه الناحية اتجه جيش الصليحى لمحاربة ابن جهور فى لهاب . فضيقوا عليه الحصار . وفكوا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم . ومنهم القاضى « لملك بن مالك الحمادى » . ولكن ابن جهور استمر فى عناده ، وتمكن من أن يؤثر على أتباعه . ويدفعهم إلى الاستمرار فى المقاومة ؛ ولما ضعف جيشه . ورأى أن مصيره إلى الهلاك استعان « بنجاح » فى زُبيد . وكانت علاقته مع الصليحى حسنة ؛ فتوسط بالصلح ، ولكن وساطته لم تثمر . وكان أن تمادى ابن جهور فى بغيه ، فاضطر الصليحى إلى محاصرة حصن زبار حتى سقط . وهنا رضخ ابن جهور وسلّم نفسه إليه

مكرهاً فى مسار ، فأنزله الصليحى فى ضيافته ، وأحسن إليه . ويدل تسامح الصليحى مع عدوه على نبله وعراقته وطيب محتده فقد كان المفروض والمنتظر أن يأمر بقتل ابن جهور الذى تسبب فى إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن حتى استمات فى سبيل الوصول إلى النصر وتحريض الحانقين والناقمين عليهم — بالرغم من هذا كله وجد الصليحى أن المعاملة الحسنة أجدى وأنفع فى مثل هذه المواقف ، وآثر أن يكسب ثقة من بقى من أتباعه . وقد تحققت سياسته ، فانقسمت منطقة لهاب فيما بينهم إلى فريقين : فريق انضم للصليحى . وقدم إليه المساعدة المالية وقدرها ألف دينار ، وفريق استمر فى عداوته . مما جعل الصليحى يرد كيدهم إلى نحورهم ويجتذب إليه الفريقين أخيراً ؛ ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل نزل إلى عبرى دعاس . وعقد مؤتمراً من جميع أهل حراز ، حذرهم فيه من الخلاف عليه والشقاق ، وأعلن بدء قيام الدولة الإسماعيلية المنتظرة فى اليمن برئاسته ، وقد وعدهم بحسن السياسة وأنه لا يخالف الشرع ، كما أنه أمرهم أن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من الحسن والقبيح ، حتى ينزل بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم .

وبدأ الصليحى حكمه على الأسس التى أعلنها وتقدم

فى تنفيذ سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة . وكان من ضمنها اتباع سياسة المهادنة إزاء أمراء اليمن وأصحاب الدويلات المجاورة ، إذا نفعت هذه السياسة . وإلا فليس أمامهم إلا الحرب وإخضاعهم بالقوة تحت راية حكومته . ولما ملك الصليحى جبال حراز والمناطق المجاورة . وخشى ملوك تهامة والجبل بأسه الشديد . وتدبيره الرشيد . وتملكه الحصون والبلدان . وبخاصة حصون « حضور » وما جاورها . بدأت التقولات والإشاعات تنتشر فى كل مكان . وهنا كان لابد له من مهادنة أبى حاشد صاحب صنعاء . كما هادن أباه يحيى بن إبراهيم الصحارى من قبل ، فلما توفى يحيى سنة ٤٤٠هـ أرسل الصليحى بعض أصحابه وبنى عمه إلى صنعاء لتعزيته فى أبيه والإحسان إليه . ولكن أبا حاشد عد تأدية مراسم التعزية ومحاولاته فى المهادنة تدخلا من الصيلحى فى أموره فساءت العلاقة بينهما أخيراً مما أدى إلى قيام الحرب بين الطرفين . وقد انتهت بمقتل صاحب صنعاء واستيلاء الصليحى عليها . وقد رأى الناس من عدله وفضله وحسن سيرته ما ألف قلوبهم على محبته . وجعل أهل النخوة والنجدة يقبلون الدخول فى طاعته .

هذا ... وقد عد الإمام الزيدى الناصر الديلمى بن الحسين

ابن محمد بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب – وكان قد وصل من الديلم إلى اليمن سنة ٤٣٧هـ لإعلان المذهب الزيدى وانضمت إليه قبائل كثيرة فى صعدة . ومنها سار إلى صنعاء وملكها . فطرده يحيى بن أبى حاشد والشريف جعفر بن الإمام منصور العيانى ، فعاد إلى ذى أبين وناصر هذا كان يعد من العلماء الأجلاء ، وله تفسير للقرآن فى أربعة مجلدات – عد الناصر أن استيلاء الصليحى على صنعاء يشكل تهديداً له ولغيره من زعماء اليمن ، فكان أن اتصل « بنجاح » صاحب تهامة وطلب منه إخراج الصليحى من صنعاء ، وتملكها . وهذه البوادر التى ظهرت من الناصر كانت مدعاة لغضب الصليحى . فسير إليه جيشاً حاربه ثم قتله أخيراً فى موقع نجد الجاح ببلاد رداح ، ومثل به ثم حُمل رأسه إلى صنعاء ، ودفنت جثته فى أقيق ببلاد عنس .

وفى هذا العام ثار الهمدانيون وهم أكبر القبائل التى دانت للصليحيين وفكروا فى خلع طاعتهم ، والخروج على حكمهم ، بالرغم من أن الصليحى كان لايسير فيهم إلا سيرة العدل والحق . فاتصلوا بالشريف القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العيانى ، واستنهضوه وأتباعه فاستجاب لطلبهم ، وخرجوا جميعاً سنة ٤٤٨ هـ لغزو الصليحى ، فتقابل الجمعان

بالقرب من قرية الهرابة ، ببلاد حاشد ، فردهم الصليحى وحاصر الشريف ومن معه بأحد الحصون ، ونصب عليه المنجنيق ، لكن أتباع الشريف دافعوا دفاع الأبطال ومات أكثرهم لنفاد المؤونة ، وعند ذلك اضطر الشريف إلى أن يسلم نفسه للصليحى فأكرمه وخلع عليه ، ولم تكن سياسة الصفح التى اتبعها الصليحى فى هذه المرة سياسة هوادة أو تردد ، بل قصد منها تسكين الثارات ، لأن فى تسكينها الأمن والخير والسعادة والاستقرار لليمن ولليمنيين .

وتمشياً على هذه السياسة القائمة على المهادنة والملاطفة كان الصليحى يلاطف القائد « نجاحاً » صاحب الدولة الحبشية فى زبيد تهامة التى حملت لواء الدعوة الإسلامية السنية فى اليمن بعد دولة بنى زياد . ولكنه كان يدرك أن دولته الإسماعيلية الفتية لا يمكن أن تكون لها شخصية معنوية قوية وكيان متين ، إلا إذا قضى على أكبر منافسيه وهو « نجاح » وكان الصليحى يلاطفه حتى قوى مركزه ، ودان له معظم الجزيرة اليمنية ثم بدأت العلاقة تتوتر بين الطرفين بفضل مساعى الإمام الزيدى أبى الفتح صاحب صعدة الذى أفسد بين الصليحى وصاحب زبيد فحلت الوحشة بعد الأنس والجفاء بعد حسن الصلة ، فأرسل نجاح جيشاً

كثيفاً ، ووافاهم الصليحى بجيشه خلف صعفان فى الجنت المتصل بتهامة ، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة ومصادمات عديدة ، وكانت الكرة الأخيرة للصليحى وجيشه من العرب على جمع الأحباش .

ويروى التاريخ أن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة ٤٥٠هـ فى ابن طرف ، وكان معهم جميع أمراء الأحباش ، وكان جيشهم عشرين ألفاً ، فسار إليهم الصليحى فى ألفين وسبعمائة فارس وهنالك التقى الجمعان بالزرائب ، فكانت الدائرة على الأحباش ، ولم يسلم منهم إلا ألف لجأوا إلى جبل يعرف بالعكوتين فوق مدينة الزرائب .

فى تلك الأثناء مات نجاح سنة ٤٥٢ هـ بالكدراء ، ويروى أن الصليحى دبر حيلة لقتله . حتى تم له ما أراد على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض ... على أن أكثر المؤرخين يؤكدون أن موت نجاح كان طبيعياً . ولكن هذا الموت لم يكن حداً فاصلا بين الطرفين . بل على العكس كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين . فقد تسلم الزعامة بعد نجاح ولده سعيد . ولكن الصليحى أظهر براعته العسكرية بتأجيل أمر النجاحيين . وقرر أن يقضى أولا على فوضى

الدويلات فى داخل اليمن الأسفل . وبعدئذ يتجه إلى عدوه الرئيسى ، وكل هذا حتى لا تشغله جبهة أخرى فى داخل البلاد . وفى هذا تتجلى حكمته ورأيه السديد ؛ فزار مسار وصنعاء زيارة قصيرة ، ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل واستولى عنوة على جبل صبر . وعلى بلاد بنى الكرندى وملوك المعافر وحصن الدملوة . كما استولى على بلاد الحسين التبعى صاحب حصن حبّ وبُعدان والسحول والشوافى ، ودخل الجَنَد . وهى يومئذ مدينة اليمن الأولى . ولم يكن فى اليمن أشهر منها ومن مدينة صنعاء منذ الجاهلية حتى عهد الصليحى . ثم سار إلى عدن واستولى على بلاد بنى معن الذين كانوا يملكون عدن . ثم هادنهم أخيراً وسلم إليهم بلادهم بعد أن بذلوا له السلم وأعلنوا الخضوع له والائتمار بأمره .

ثم قصد بعد ذلك تهامة . وسار إلى زبيد وافتتحها ، واحتل التهائم كلها ، وطرد منها أولاد نجاح الذين فروا إلى جزيرة دهلك فى البحر الأحمر . واستقروا فيها . ويروى التاريخ أنه بعد هذه الفتوحات سار فى الناس بالعفو والصفح ورفع السيف ، وبسط العدل ولاذت به العرب ولا سيما فى بلاد تهامة حيث كان العبيد يتحكمون بهم ويستطيلون عليهم أيام القائد نجاح .

وهكذا طوى الصليحى بلاد اليمن طيًّا وأرضخها جميعها لنفوذه وسلطانه . وافتتح كل ما كان مغلقاً فى وجهه فلم يخرج سنة ٤٥٤ هـ إلا وقد ملك الأقطار اليمنية كافة : قلاعها وحصونها . ومدنها وسهولها وجبالها . وامتد نفوذه من مكة حتى حضرموت . وتمنعت عليه صعدة بعض التمنع . ولكنه ما لبث أن قتل القائم فيها وملكها وبذلك تمت أمور الدولة واستقرت وتوحدت كلمة اليمن .

وجعل الصليحى صنعاء عاصمة لمملكته واتخذها حاضرة لدولته . وبنى فيها عدة قصور . وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد . ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد فى ظل حكم عادل قوى يقوم على الحرية والعدالة والحق. وكل هذا كان من برنامج الملك على الصليحى . فقد أخذ يوطد دعائم ملكه على هذا الأساس ، ويرسى قواعده ، وينظم سياسة البلاد وإدارتها . ويولى فى المناطق والحصون من يرتضيه ويثق به من الولاة والحكام والقواد . فولى على تهامة « الأمير أسعد بن شهاب الصليحى » . صنو السيدة الحرة . أسماء بنت شهاب زوجته — الذى دخل زبيد سنة ٤٥٦ هـ . وسكن دار شحار ، وأحسن السيرة فى الرعية ، وأذن لأهل السنة فى إظهار مذهبهم . كما أمرهم بذلك الصليحى .

وعامل أرباب الدولة النجاحية بالحسنى .

وكان الصليحى قد أقسم ألا يولى التهائم إلا من يزن له مائة ألف دينار . ثم ندم على ذلك حين أراد أن يوليها أسعد بن شهاب ، وهنا وزنت له زوجته الملكة أسماء عن أخيها ، فقال لها زوجها: يا مولاتنا ! من أين لك هذا ؟ قالت : « هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ، فتبسم وعرف أنه من خزائنه ، فقبض وقال : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فقالت له : « ونميرُ أهلنا ونحفظ أخانا » .

وعين الصليحى أيضاً ابنه الأمير المكرم أحمد على الجند وما يليها ، واستعمل أخاه عبد الله على بلدة ذى جبلة ، فابتدأ يصلحها ويعمرها ويمدنها ، ولم يكن اهتمام الصليحى مقصوراً على اليمن فحسب ، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده ، وبالأخص إلى بلاد الحجاز والأراضى المقدسة فيها ، وهى أقرب البلدان إلى اليمن . وأهمها فى نظر المسلمين ، وأحوجها إلى استقرار الحكم وحسن الإدارة . فوجه اهتمامه إليها ، وكان إخلاصه للخلافة الفاطمية وللتعاليم الإسماعيلية ، وتفانيه فى سبيل رضا الإمام المستنصر بالله ، يحتمان عليه أن يجيب أوامره طائعاً ، ويؤديها متبركاً برضاه ، معتزاً

بثقته به ، فلما خرجت مكة عن طاعة المستنصر بالله ، وقطعت الخطبة له من سنة ٤٥٣ هـ ، أرسل الصليحى إلى واليها « شكر الحسينى » يحذره مغبة خروجه عليه وتبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوى على الكثير من التهديد والوعيد . ولما عيل صبر الصليحى وضاق صدره طلب من الإمام الفاطمى المستنصر بالله أن يأذن له بإزالة الشريف شكر عن مكة ليكون أمرها إليه ، فأجابه المستنصر بكتاب ينهاه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلا : « إياك أن تلقى الله بدماء بنى فاطمة » ، فاعتمد الصليحى أمر إمامه ، وصبر مكرهاً على ما كان يجرى فى البلاد المقدسة .

ثم توجه إلى مكة أخيراً سنة ٤٥٤ هـ ، وقضى فريضة الحج ومعه أمراء اليمن وزعماؤها ، فانتزعها من بنى أبى الطيب ، وذلك أن شكراً ، لما توفى وخلفه ابن جعفر رئيس الهواشم وزوج ابنة شكر ، أوقع بالسليمانيين الهزيمة ، وأخرجهم من بلاد الحجاز . واستقل بإمارة مكة ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ، ولكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة ، لأنه ما لبث أن انحرف عنهم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسى القائم .

ولما انتهى الصليحى من فريضة الحج أخرج من الأموال

والصدقات للبيت وللحرم والمناسك ما يفرق حد التصور ، وعامل الناس بالحسنى . وأظهر العدل والإحسان ، وعمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال ، فطابت قلوبهم ، ورخصت الأسعار وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف مثله من قبل حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلا ونهاراً وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة . ولم تقف أعماله هنالك عند هذا الحد ، بل إنه شن حملة تأديب على القبائل الثائرة التى كانت تعتدى على الحجاج ورد بنى شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج ، ورد إلى البيت من الحلى والأثاث ما كان بنو الطيب الحسينيون قد أخذوه عندما تملكوا بعد شكر ، وكانوا قد عروا البيت والميزاب . ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف فى هذه البلاد ، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص. فكسب بحسن سياسته وإدارته رضا إمامه المستنصر بالله ، وثقة كثير من البلدان الإسلامية المجاورة لما قدمه من خدمات للحجاج عامة ، وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض ، وما جلبه من الأقوات إلى أهالى تلك البلاد ، فلهجت الألسن بالدعاء له فى كل مكان والثناء على كرمه وأفعاله .

ومن الجدير بالذكر أن الصليحى أقام فى الأراضى المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة ٤٥٥ هـ يخطب للخليفة



المستنصر بالله ، ويعيب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين، وفى أثناء إقامته بمكة راسله الأشراف الحسينيون المغلوبرن على أمرهم، وطلبوا منه أن يختار من بينهم والياً عليهم، وبذلوا له الطاعة . فأقام على البلدة واليها السابق محمد بن جعفر ، وأعطاه مالا وسلاحاً ، وأصلح بين العساكر ، ودل بهذا على حسن سياسته لأنه لم يتعنت مع الحسينيين ، ولم يظلمهم، وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم ، وخاف أن يترك البلدة قبل أن تستقر الأمور فيها ، فتقع فى أيديهم ، ويستمرون فى عنادهم وخلافاتهم، فاستعمل معهم اللين ، وبذلك نجح فى تحقيق سياسته مؤقتاً ، وقفل بعد ذلك عائداً إلى صنعاء .

ومهما يكن من أمر فإن الشريف محمد بن جعفر أمير مكة لم يعمل طوال عهده الذى بدأ من سنة **٤٥٣ــ٤٨٧** ه على تنظيم الأمور فى الأراضى المقدسة . وإقرار الأمن بها بالرغم من المساعدات المالية التى كانت ترد إليه من الخليفة العباسى أحياناً ، ومن الخليفة الفاطمى أحياناً أخرى ، بل أساء التصرف والسيرة فيها ، وأصبح الحجاج فى أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم، كذلك لم يبد من هذا الشريف ما يشعر برغبته فى الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية ، بل دان لكل منهما بالطاعة فى فترات متقاربة حتى وصفه

أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » : بأنه كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين وتارة مع الفاطميين المصريين ، ويظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد المقدسة ومصالح المسلمين جرياً وراء المال ، وهناك من يقول: إن هذا التلون يعود إلى دوافع سياسية وأخرى اقتصادية .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه بعد عودة الصليحى إلى صنعاء شكر له الخليفة الفاطمى المستنصر بالله حسن صنيعه وامتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء فى الأراضى المقدسة، ولكن الشريف محمد بن جعفر رجع إلى ما كان يفكر فيه ، وخرج على من أحسن إليه ، فهاجم مدينة الحلى ، واستولى على ما بها من متاع للصليحى ، ولم يكتف بذلك بل عمل على إثارة الفتن وتهييج العامة .

وفى أثناء غيابه عن اليمن أيضاً قامت الفتن والثورات فى بعض أنحاء المملكة ، فثار عليه قوم من عَنْس وزُبيد وأظهروا الخلاف والعصيان، والتفوا حول رجل منهم، ثم التجأوا إلى جبل مَشْوَة وما جاوره فى الجبال ، وعندما عظم فسادهم قصدهم الصليحى واقتحم معاقلهم عنوة حتى دانوا له بالطاعة .

وأخيراً وبعد كل هذا عاد الملك على الصليحى للتفكير فى شؤونه الخاصة وأمور الملك ، ومنها ولاية العهد خاصة ،

وكان ولده الأكبر الأمير محمد قد بلغ مبلغ الرجال ، فرغب فى أن يوليه ولاية العهد لينوب عنه فى الملك فى حياته وبعد مماته ، فكتب إلى الإمام المستنصر بالله سنة ٤٥٦ هـ يخبره بما استقر عليه رأيه ، فورد إليه سجل الإمام بالموافقة على هذا داعياً للأمير بالتوفيق ، ولقبه الأمير الأعز شمس المعالى ، وأذن له الإمام أن يذكر هذا اللقب على منابر البلاد اليمنية ، وكان وصول السجل المستنصر من مصر سنة ٤٥٦ هـ ، وفى ذلك الوقت توفى الأمير أسعد بن شهاب حاكم زُبيد وأعمالها ، فرأى الصليحى أن يولى ابنه الأمير محمد على ما كان لخاله أسعد ، وأراد أن يتركه حر التصرف فى إدارة شؤونها لكى يختبره ويدربه على الحكم .

وهذا هو سجل الإمام المستنصر بالله بهذا الشأن :

«ومما نظر إليك أمير المؤمنين نظر مثله ، ممن ينظرون بنور الله لمثلك ، ممن بإخلاص ولائه يستظهر ، أن يتخذ ولدك منتجب الدولة وصفوتها ذا المجدين خليفة لك ، يخلفك فى حياتك ، ويكون خلفاً صالحاً عند حضور وفاتك ، وأن يصطنعه لنفسه ويلبسه من لباس الأكرومة ما يرتقى إلى ذروة الشرف بلبسه ، ويفيض عليه من خاص الملابس ما يفيض عليه الأقدار بإذن الله سعودها ، وتنجز له أقاصى الأمانى

وعودها ، ويسميه بالأمير الأعز شمس المعالى مضافاً إلى قديم ألقابه، ويأذن أن يدعو فى تراجم كتبه ويدعى به ويفسح أن يذكر به على فرق منابر بلادك فى أعجاز ذكرك وأعقابه، وأن يلقب أخويه بلقبين زائدين فى ألقابهما المتقدمة لينالا بهما مزيداً فى الاصطناع والكرامة . فالأوسط منهما الأمير المكرم، والأصغر الأمير الموفق ، والله تعالى يسدد كلا منهما ويرفق » .

وصل الأمير محمد إلى زُبيد فى شهر شعبان من سنة ٤٥٧ هـ . وبعد خمسة أشهر من حكم تهامة سار والده الملك على الصليحى بصحبة الملكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب وولدهما الموفق فى شهر محرم سنة ٤٥٨ هـ إلى زُبيد ، وأقاموا فى ضيافة ولدهم الأعز مدة قصيرة ثم عزموا بعدها على العودة إلى صنعاء فصحبهم الأمير الأعز مودعاً ، وكان يريد أن يبلغ معهم الغمد ، ولكن لما صار بالمصقع أصابته الحمى فأمره والده بالرجوع إلى زُبيد، فرجع إليها ودخلها ليلة الثلاثاء لعشرين ليلة خلت من محرم ، وقد ازداد عليه المرض فلم يمهله . فتوفى فى الثانى والعشرين من محرم سنة ٤٥٨ هـ ، وعمره سبع وعشرون سنة ، ولما وصل خبر موته إلى والده ، وهو على وشك الطلوع إلى حصن مسار مع الملكة أسماء ، اشتد عليهما الحزن ، وقفل الملك علىّ عائداً

إلى زُبيد بجميع من معه ، فوصل إليها ليلة الاثنين ولم يكن ابنه الأعز قد دفن فشيع جنازته يوم وصوله ودفنه بقرب ضريح خاله الأمير أسعد بن شهاب .

وبعد أن أقام الملك على الصليحى العزاء على ابنه الأعز الأمير محمد سبعة أيام، عاد فتجدد هذا مرة أخرى على وفاة ابنته ميمونة التى ماتت غمًّا على أخيها . وقبل أن تصل رسل الملك الصليحى إلى الإمام المستنصر بالله كان قد علم بوفاة الأمير الأعز فأرسل إليه سجلاً يعزيه بوفاة ولى عهده ، وآخر يعين بموجبه الأمير المكرم وليًّا للعهد .

ولم يكتف الملك على الصليحى بما وصله من الإمام المستنصر من عطف وشعور ، بل أوفد إليه إلى القاهرة وفداً مكوناً من القاضى عمران بن الفضل ونجيب بن عفير ويوسف بن محمد وعنتر بن غشم يطلب منه السماح بالمثول بين يديه ، فردّ عليه المستنصر بأنه يشفق عليه لبعد المسافة ومشقة الطريق ، ولعل السبب الرئيسى فى عدم موافقة المقام الإمامى على ذهاب الصليحى إلى مصر يرجع إلى حالتها العامة فى ذلك الوقت ، إذ أنها كانت تحت الشدة العظمى التى استمرت من سنة ٤٥٩ — ٤٦٦ هـ ، وهى المدة التى تعرضت خلالها للسلب والنهب والخراب ، بسبب الاختلال

الأمن وانتشار الفوضى ، وهذا ما حفز الإمام المستنصر بالله على تكليف بدر الجمالى بالوزارة . وهنا بدأ عهد جديد بالتغلب على المصاعب وإعادة الأمن والثقة والاستقرار .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك على الصليحى لما استقر به الحال ، وكان قد أوحى لولده الثانى أحمد المكرم بولاية العهد والقيام بالعدل وحسن السيرة وسياسة الرعية ، غادر صنعاء إلى الديار المقدسة مرة ثانية لأداء فريضة الحج ، وكان قد أرسل قبل سفره خمسين أميراً من أمراء اليمن المغلوبين على أمرهم ومائة وسبعين من آل الصليحى وغيرهم ممن أرادوا أداء فريضة الحج من قبائل يام وجنب وسخان وأهل حراز ، وقد رمى من سيرهم أمامه عدم ازدحام الطريق بهم ، ثم سار هو فى ألفى فارس وبين يديه خمسمائة فرس مطهمة بالسروج ومحلاة بالذهب والفضة وخمسون هجيناً ، وغير ذلك من أدوات الزينة والآلات مما لا يكن إدخاله تحت الحصر .

وكان قيامه من صنعاء فى يوم الاثنين السادس من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، وفى هذه الأثناء كانت نار الحقد وحب الانتقام تلتهم قلوب بنى نجاح بزعامة سعيد الأحول ، فكانوا يتربصون الفرص للإيقاع بالصليحى ، والعمل على تقويض أركان دولته التى كانت سبباً فى زوال ملكهم وملك

بعض أمراء اليمن الآخرين ، فكان يشجعهم على الاستمرار بطلب حقوقهم ، ويقوى عزمهم على الأخذ بثأر نجاح ، ما لمسوه من مساندة بعض القبائل لهم ، وإعلانهم عن استعدادهم للسير معهم فى حروبهم ، فلما وصل الخبر إلى الصليحى استقدم أحد متقدميهم فرحاً البيشى ، وهو من العبيد الأحباش عند نجاح ، فذكر له إحسانه إليه وتقديمه ورفع مكانته ، فأنكر فرح ما نسب إليه وحلف الأيمان المغلظة بأنه لا يعلم شيئاً عن الأمر ، وقرر استعداده للذهاب وإحضار رأس سعيد الأحول إلى الصليحى ؛ ولكن الأمر كان على العكس ، فإن فرحاً لما ذهب إلى زبيد أخذ يحرض العبيد والأحباش ويوغر صدورهم ؛ وبلغ ذلك الصليحى فأمر بإلقاء القبض عليه وقتله ، فكان من أثر ذلك أن شق الأحباش عصا الطاعة على ولاة الصليحيين بزبيد حيث وثبوا على أبى السعرد ، وأحمد بن أسعد بن شهاب الصليحى فقتلوهما ، وقتلوا كل من كان معهما من أهل حراز ، ثم نهبوا ما معهم من أموال ومتاع .

ولم يكتفوا بذلك بل عزموا على محاربة الملك الصليحى نفسه ، فاستدعوا من كان على رأيهم من العبيد والأحباش بتهامة والحجاز لحرب الصليحيين ، وجندوا جنودهم ،

وعبأوا صفوفهم ، ثم إنهم علموا من عيونهم التى بثوها أن الصليحى ليس معه أحد من أهل البأس والحرب والمراس ، لأن رجاله كانوا قد تقدموه إلى الديار المقدسة كما ذكرنا وأن جميع أمواله وأثقاله مبثوثة فيما بين هجر والمهجم ، وهذه البلاد قد تمهد مهادها واستقام عمادها وأمنت السبل وخضع كل عزيز وذل ، ولم يكن مع الصليحى فى المهجم إلا ابنه الموفق وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب وأخواه عبد الله وإبراهيم وجماعة من بنى الصليحى ، فلما علم بأن الأحباش قد عبأوا قواتهم وأنهم فى طريقهم لقتاله، أنفذ عبيده الذين كانوا معه لمقاتلة العدو ، وقد عهد إليهم بهذا الأمر لوثوقه بأنه ولى نعمتهم وله عليهم فضل وإحسان ، وأنهم يفدونه بالمهج والأرواح . فهبوا مسرعين متظاهرين بالحماسة ، ولكنهم أضمروا الخيانة والغدر، لأنهم حين التقوا فى الطريق ببنى جلدتهم قرروا الغدر بسيدهم وولى نعمتهم . وحرضوا العبيد والأحباش عليه ،ودلوهم على موضعه ، وقالوا لهم : إن فاتكم غداً لحق بأصحابه وعسكره، وامتنع عليكم فأصغوا إلى نصيحتهم ، وقويت نفوسهم ، وصحت عزائمهم . وساروا إليه مجدين حتى فاجأوه بقرية يقال لها « أم الدهيم » فانقضوا عليه فى اليوم الحادى عشر

من ذى القعدة سنة ٤٥٩ ه ، ومعه بنو عمه الذين أبلوا بلاء شديداً فى الدفاع ؛ وكان أخوه عبد الله أشدهم يومئذ إقداماً وأعظمهم بطشاً بالأعداء .

فى هذه المعركة قتل الصليحى وأخواه عبد الله وإبراهيم وبعض أقاربه ، أما الأمير الموفق ابن الملك على الصليحى الأصغر ، ومهنا بن على المظفر الصليحى ، فقد اتجها إلى مكان السيدات لحمايتهن ، ولكن العبيد ما لبثوا أن حاصروا هذا المكان ، واستمر حصارهم حتى اليوم الخامس عشر من ذى القعدة ، حيث استأمن مهنا وخرج إلى الأحول فأخذ منه ميثاقاً شديداً على الحرائر الصليحيات وعلى من بقى من بنى الصليحى وسواهم وحلف له أغلظ الأيمان بأنه سيطلق سراحهن ليسرن إلى صنعاء ، فوثق بقوله ، ونقل السيدات إلى دار أخرى ، ولكن الأحول غدر بالرجال فقتلهم عن آخرهم ، ونهب كل ما كان فى الدار من أموال جليلة القدر وسائر ما يدخره الملوك ، وكان الصليحى قد أعدها لينفقها على الجيش والحجاج والمسلمين وعلى البيت الحرام . ويروى التاريخ أنهم غنموا ألف فرس وثلاثة آلاف جمل بعددها وعدتها .

هنا سألت الملكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب سعيداً

الأحول أن يسمح لها ومن معها من النساء بالعودة إلى صنعاء، فامتنع ، وساربهن إلى زبيد ومعه رأسا الملك على الصليحى وأخيه عبد الله محمولين على رمحين أمام هودج الملكة أسماء ، وقد نُصب الرمحان أمام الشباك الذى تنظرمنه الملكة الحرة أسماء فى الدار التى حلّت بها ، إلا أن سعيداً بذل ما استطاع من الجهد فى سبيل المحافظة وصيانة السيدات الصليحيات .

يتبين من مجريات الأمور ومن الحوادث التاريخية التى تدور حول هذ الموضوع أن الصليحى لم يكن يبغى الحج لذاته، بل كان له برنامج إصلاحىّ حافل بالأعمال والخيرات أراد تطبيقه بحزم وجد، وبعضه يتعلق بالمساعى الخيرية لتسهيل الحج وعمارة الآثاروحفظ المؤن وإجراء الأنهار، والبعض الآخر يتعلق بالاستعداد لزيارة إمامه المستنصر بالله الفاطمى، ولكنه ما لبث أن ذهب ضحية خيانة عبيده وتهاونه باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة العدو، وجهل عماله بما يجرى فى المناطق والأقاليم من استعدادات وتأهبات .

هذا وقد اختلف المؤرخون فىتحديد السنة التى قتل فيها الصليحى ، كما اختلفوا من قبل فى السنة التى تولى فيها ، فقال البعض: إن قتله كان فى سنة ٤٧٣ هـ وقال البعض الآخر : إن ذلك حدث فى سنة ٤٥٩ هـ ؛ والصواب هو التاريخ

الأخير، كما ورد فى الوثائق المعاصرة، وهىالسجلات المستنصرية .

ولابد من القول، ونحن فى طريقنا لإسدال ستار على تاريخ هذا الرجل العظيم الذى استطاع تأسيس دولة كبرى فى اليمن ، إن عهده يعدّ بالنسبة لتاريخ اليمن من العهود الزاهرة ، وإنه من الرجال الذين قل أن يجود الدهر بمثلهم ، وذلك لأن البلاد اليمنية لم تجتمع لملك واحد ، بل كان الرئيس منهم يملك إقليما صغيراً أو حصناً ، ثم يأتى من هو أقوى منه فينتزعه ، وكانت البلاد تعانى فوضى الإمارات الصغيرة المتنابذة ، وذلك يخالف ما عمل وخطط له الصليحى ، فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد ، ويرى عُمارة: أن هذا أمر لم يعهد فى جاهلية ولا فى إسلام ، وبيّن ذلك العرشى بكتابه «بلوغ المرام» بقوله : «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحى ، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه فى مدة يسيرة ، بعد أن قهر أعداءه ، فهو لذلك لا يقل فى نظرنا عن بعض القواد الفاتحين الذين لمع اسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزوه من انتصارات ، وما قاموا به من فتوحات وأعمال مجيدة ، وإن يك ذلك لمدة وجيزة » .

ومن هنا نرى أنه حكم البلاد حكماً مطلقاً ، كما كان

فى العصور الوسطى . ولكنه كان حكماً مستنيراً عادلا قائماً على أسس حكيمة يتجلى فيها السمو والرفعة ، فكانت أمور الدولة والدعوة الإسماعيلية مركزة فى شخصه تقيده بالمثل التى قررها لنفسه من إقامة الحق وإقرار العدل . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه من الناحية الدينية ظهر على صفحات تاريخ اليمن داعياً إسماعيلياً متمسكاً بأهداب الدين حريصاً على تعاليم الإسلام غير مكره أحداً على الدخول فى عقيدته ، ولكنه لم يكن يرفض لأحد أن يتهاون بفرائض الدين ، ومع ذلك اتهم كما اتهم من قبله الأئمة الفاطميون بالكفر والخروج على الدين الإسلامى . والغريب أنهم اتهموه بالإباحية وتعطيل الشرائع ، وهو الذى كان يحج إلى مكة ويعمر طرقاتها ويؤمن للناس القيام بفرائضهم ، وهذا هو المؤرخ الفاسى يقول فى كتابه «تحفة الكرام» : «فطابت قلوب الناس ، ورخصت الأسعار ، وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف له مثيل من قبل ، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً ، وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة» . ويقول ابن الجوزى فى مرآة الزمان : «فرد بنى شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج ورد إلى البيت من الحلى ما كان بنو الطيب الأشراف قد سلبوه ، كما ملكوا الديار المقدسة بعد شكر الحسينى وكانوا

قد عروا البيت والميزاب» .

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به الملك على الصليحى فى الأراضى المقدسة أكسبه ثقة الكثيرين من البلدان الإسلامية ، فإن ما جلبه إليها من الأقوات جعل الألسن تلهج بالدعاء له فى كل مكان . والحقيقة أننا نستبعد أن يكون كلام المغرضين صحيحاً ، لأن تاريخ الصليحيين لا يدلنا على شىء مما ذكروا ، والصليحيون الإسماعيليون كانوا يتخذون من الدين الإسلامى الحنيف ، ومن ولائهم لأئمتهم الفاطميين بمصر ، وسيلة لنشر نفوذهم ، وتوطيد حكمهم فى البلاد التى أخضعوا لسلطانهم ، كما كان دأب الحكومات والملوك فى العالم الإسلامى فى ذلك العهد فى تعلقهم وانتسابهم لخلافة بنى العباس ، وكيف ننكر ما قاله الصليحى نفسه لأهل حراز : «فلم أطلع مسار متجبراً باغياً ولا متكبراً على البلاد عاتياً ، وإنما قيامى بالحق الذى أمر الله عز وجل به والعدل الذى أنزل فى محكم كتابه»....

وكان الصليحى أيضاً يتسامح مع علماء السنة متخذاً خطة التسامح الفاطمية ، لأن الفاطميين كانوا يتسامحون أيضاً ، حتى إنهم سمحوا لبعض فقهائهم بإقامة شعائرهم ونشر تعاليمهم فى المساجد ، ولقد روى التاريخ أنه فى سنة ٣٨٣ هـ

وثب رجل جعفرى للجلوس فى الجامع الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت ، فشغب عليه الفقهاء ، من أهل الجامع فبلغ القاضى ذلك ، فقبض على بعضهم . وهذا النص يدل على أنه كان بالأزهر فى عهد الفاطميين فقهاء يخالفون المذهب الفاطمى ويفتون وفق تعاليم مذاهبهم ، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الإمامى شغبوا عليه ، فاضطر القاضى إلى إصدار الأمر بالقبض على بعضهم لا لشىء إلا لأنهم لم يتسامحوا مع هذا الفقيه كما تسامحت الدولة معهم .

وكذلك فعل أسعد بن شهاب الصليحى لما دخل زُبيد سنة ٤٥٦ هوالياً عليها من قبل الصليحى ، فأحسن السيرة فى الرعية وأذن لأهل السنة بإظهار مذهبهم . وقد ساعدت هذه السياسة الدينية الصليحية إلى حد ما على حفظ الأمن فى البلاد الخاضعة لها ، مع وجود المعارضة القوية لمذهبها الرسمى ، فانصرف الناس إلى أمور معايشهم مطمئنين ، وتحير المنافسون فى مقاومة هذه الدولة المتطورة العادلة المتفهمة التى لا تمكن مقاومتها ، بعد أن رأوا من حسن سياسة الملك الصليحى وتشدده مع الخارجين على الدين الحنيف ، ورفعه لأهل العلم والفضل مهما تكن نحلتهم ، وتسامحه مع أهل المذاهب الإسلامية الأخرى ؛ فلم ينكر على أحد مذهباً من مذاهب فرق

الإسلام على تشعبها ، بل أقر كل امرئ على ما كان عليه.

ومما يجدر ذكره أن الملك على الصليحى عرف أن الشعر العربى يجب أن يكون السلاح الماضى فى خدمة الدولة وأنه من أهم وسائل الدعاية لها ، فلم يشأ أن يترك هذا السلاح دون أن يشهره على خصومه أو يستخدمه فى الدفاع عن دولته والمباهاة بفضائلها والإشادة بذكرها . فلا عجب بعد هذا إذا ما رأيناه يجزل العطاء للشعراء ، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون والفاطميون ، ومن أشهر الشعراء الذين قرضوا الشعر فى عهده « عمرو بن يحيى الهيثمى ، والحسين بن على القمى ، والحسن بن أبى عُقامة » .

وكان الصليحى نفسه ممن يتذوقون الشعر فصيحاً بليغاً . وقد روى عنه بعض الأبيات قالها فى مناسبات شتى ، فمنها :

أنكحت بعض الهند سمر رماحهم   فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها   إلا بحيث تطلق الأعمار

ويروى أيضاً أن على الصليحى قال عند احتلاله حصن وراخ المشهور :

ما اعتذارى وقد ملكت وراخا   عن قراع العدا وقود الرعال

وكانت له نفس طموح . ويقول :

وألذ من قرع المثانى عنده   فى الحرب ألجم ياغلام وأسرج

خيل بأقصى حضرموت مجالُها   وصهيلها بين العراق ومنبج

وكان الصليحى فرق ذلك عالماً وفقيهاً مستبصراً فى علم التأويل ، كما كان خطيباً مفوهاً ، وقد وقفت على بعض خطبه التى ألقاها فى أهل حراز وأنصار الدعوة ، وهى تبين مقدار بلاغته وقدرته ، ولا يبعد أن تكون الخطابة قد بلغت مركزاً مرموقاً فى عهد هذه الدولة العربية المتحضرة .

وفى الختام لابد من القول : إن عليًّا الصليحى وإن يكن مجهولا بالنسبة للتاريخ العربى واليمنى ، فهو مؤسس مملكة ومقيم تعاليم ، وموجد دولة كبرى ساهمت كثيراً فى بناء الحرية والأمن والعدالة .

العهد الثانى

الملك المكرّم الصليحى

ظهر المكرم بن على الصليحى الهمدانى ملك اليمن على صفحات التاريخ بعد مقتل والده الملك على الصليحى الذى مر ذكره . وقد اتصف المكرم بالشجاعة وكرم الأخلاق والتسامح وعلو الهمة وكأنه نسخة عن والده . وفيه يقول صاحب قلادة النحر : « كان المكرم ضخماً شجاعاً وفارساً مقداماً » . وقد مر معنا فى الصفحات الأولى أن الإمام الفاطمى المستنصر بالله منحه لقب المكرم سنة ٤٥٦ هـ ، وأصبح وليًّا لعهد أبيه بعد وفاة أخيه الأكبر الأمير الأعز ، ثم أخذ يتدرب على إدارة شؤون البلاد حتى إن والده حينما عزم على أداء فريضة الحج سنة ٤٥٩ هـ أنابه عنه فى حكم البلاد ، وكان قبل ذلك قد وكل إليه إدارة إقليم الجَنَد وما جاوره من البلدان ، ولما جاءه خبر مقتل والده الملك على فى المهجم ، وأسر والدته ، والقضاء على خيرة رجال دولته ، وقع المكرم فى حيرة ، وكاد يقضى على صرح الدولة الصليحية قضاء مبرماً لأن أعداءها تأهبوا للانقضاض عليها فى تلك الفترة ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل أخذ

كثير منهم يتوثبون للثورة وإيغار الصدور ، وكاد يخرج أمر الصليحيين من كافة بلاد اليمن ، ولم يبق لهم إلا التعكر ، وفى هذه الأثناء كان الأحباش — وقد نالوا شيئاً من الانتصار — يتمادون فى غيهم ، فحاصروا مالك بن شهاب الصليحى فى حصن مسار ، وتآمرت القبائل من كحلان وهران وعنس وزبيد ويحصب على الصليحيين . وامتدت العدوى إلى صنعاء نفسها حتى كان المكرم يقيم مع جماعة من خلصاء أتباعه لا يزيد عددهم على ستمائة من الحجازيين .

فماذا يفعل المكرم والأعداء قد أحاطوا به من كل جانب ، وطمع فيه كافة الأعداء ، وظهر أكثر الذين كانوا يتوددون إليه بمظهر العداء الواضح ، وغدا فى حرج ، وأنى له أن يتخلص من هذا المأزق ؟ على أنه لا بد من تعليل هذا الموقف بأمرين :

أولا : أن أهل اليمن لم يألفوا الخضوع لسلطان حكومة مركزية كالتى تمكن على الصليحى من تأسيسها حين ضم بلاد اليمن جميعها تحت لواء واحد ، وأصبح يخيم من الحجاز شمالا إلى حضرموت جنوباً ، كما تمكن من ثل عروش أمراء اليمن الأقدمين وكبح جماحهم ، وإقصائهم عن إماراتهم بجمعهم فى صنعاء تحت مراقبته ، وتعيين ولاة ممن يثق بهم بدلا عنهم . كما استطاع الصليحى فى حقبة

وجيزة من الزمن أن يغير ما يجول فى الأفكار ، وأن يبدل ما يعتنقه اليمنيون من عادات ، وهى استقلال الشعوب وانفرادها بالحكم .

ثانياً : أن خضوع اليمن كلها لسلطان الصليحى لم يكن عن رغبة من أهلها ، بل كان نتيجة للحروب والرهبة والقوة الفائقة والدهاء السياسى ، فكانت حالة الشعوب خضوعاً فى الظاهر ولكن القلوب لم يكن قد تمكن فيها حب النظام وترك العشائرية والاندماج فى بوتقة الدولة الموحدة ، وإطاعة أولى الأمر ؛ ولهذا فإن الكثيرين من أمراء اليمن رأوا فى موت الملك على الصليحى فرصة تمكنهم من العودة إلى ما كانوا عليه قبل تملكه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة .

وهنا يقرر المكرم قتال هؤلاء الذين خرجوا عن حظيرة دولته مع علمه بأن هذا الخروج ساهم فيه معظم الأمراء والرؤساء والقبائل ، ولما استعرت الأرض ناراً حوله ، كان لابد له من معالجة إطفائها والتغلب على هذه الحالة الرهيبة التى لم تر الدولة الصليحية مثلها ، فصمم بصدق وعزيمة ، واستمد مما نسميه شجاعة اليأس قدراً كبيراً ، وأخذ يشجع من ظل من أصحابه على الولاء وملاقاة الصعاب ، وقد صور المؤرخ اليمنى إدريس عماد الدين فى تاريخه « عيون الأخبار »

هذا الموقف بقوله :

« وكان المكرم يثبت أصحابه على الدين ، ويذكرهم بما وعد الله به عباده الصابرين ، وبما ابتلى به مواليه الطاهرين ، فاستطاع هو وأعوانه أن يرفعوا عن صنعاء الحصار ، ويتتبعوا الأعداء فانتصروا فى ناحية حَضور انتصاراً تنفسوا بعده نسيم الأمل ، وحاربوا الأعداء فى كل مكان ، والله يعطيهم النصر ويبسط يدهم عليه » .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا النصر كان مشجعاً لأنصار المكرم على الاستماتة فى الدفاع عن كيانهم ، فانتصر قائده إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى بجهة كحلان وهران ، وأخذ هذا الجو المظلم الذى أحاط بالدولة يصفو رويداً رويداً ، وبدأت الشدة التى حاقت بهم تنقشع بفضل شجاعة المكرم وحسن بلائه وبسالة جيشه وقواده الأبطال .

هذا ، وبينما كان المكرم فى غمرة الاستعداد لمتابعة الأعداء ، وتحرير البلاد من الناكثين ، كان قواده عامر ابن سليمان الزواحى ، ومدافع بن حسن الجنبى ، وعمران ابن الفضل اليامى ، والحسين بن عمر السنحانى وغيرهم فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج مع الملك على الصليحى كما ذكرنا ، ولكنهم قفلوا عائدين إلى صنعاء عندما سمعوا

بمقتل ملكهم من قبل الأحباش فى المهجم . وقد لاقوا فى طريقهم صعاباً كثيرة من الأعداء ، فأوقعوا فى أكثر من سبع عشرة واقعة ، وفى جميعها كانوا يحرزون النصر على أعدائهم والظفر بهم .

وعندما وصلوا إلى صنعاء كان المكرم فى مسيس الحاجة إلى نجدتهم ورأيهم ، فكان فرحه بوصولهم عظيما ، حتى إنه خر ساجداً لله شكراً على وصولهم سالمين ، فلما اجتمعوا به تواصوا بينهم على الصبر فى قتال الباغين والجهاد فى سبيل الدين ، وقرروا ألا يطالبوا الملك المكرم بدينار أو درهم ولا بأى شىء حتى يظفر بالأحباش ، وينال منهم ثأره ببلدة زُبيد ، وتعاقدوا وعاهدوا الله على ذلك .

من هذا نرى أن المكرم أخذ يجمع حوله قوة من أنصاره ، وأصبح لزاماً عليه أن ينظم هذه القوة ، وأن يعدها إعداداً حسناً لمواجهة الموقف ؛ ومما لا شك فيه أن هذا التنظيم كان يقتضى الكثير من التدبير والحزم ، والشجاعة وإعمال الرأى ، وذلك حتى يتمكن بهذه القوة اليسيرة من إعادة الخارجين عليه إلى صوابهم ، ويأخذ بثأره من الأحباش النجاحيين بتهامة ؛ وقد أحسن المكرم التدبير ورأى بمشورة خلصائه أن وجود والدته الملكة السيدة أسماء أسيرة فى يد

سعيد الأحول عدوهم الألد لا يمكن التغاضى عنه .

وأصبحت هذه الصورة القاتمة مرسومة فى مخيلته تحزّ فى نفسه وتقض مضجعه ، وقد انعكست هذه الصورة أيضاً فى نفوس أصحابه المخلصين ، فأصبحت نار الغيظ تأكل أكبادهم ، وتشحذ قرائحهم ، وتؤجج نفوسهم الأبية ، ولكن ما العمل؟ وعوامل الاضطراب محدقة بدولتهم فى الداخل والخارج ، والفتن والثورات منبعثة فى مختلف الأرجاء ، فقد شق عليهم عصا الطاعة كل ناكث مخادع ، وأصبح نفوذهم إلى الزوال أقرب ،لذلك رأوا من الصواب كبح جماح كل من حدثتهم أنفسهم بالخروج عليهم ، والضرب على أيدى الخارجين ، وتطهير البلاد من الفتن والثورات ، وإعادة الأمن إلى نصابه ، ثم التوجه بعد ذلك إلى الأخذ بالثأر .

فأرسل قائده المخلص عامر بن سليمان الزواحى إلى بلاد حمير ، وإلى مغرب اليمن لإصلاح الفساد ، فجاء إليه أهل هذه البلاد طائعين ، غير أن فئة منهم ظلت معتصمة بالحصون تقاوم فقاتلهم قتالا شديداً ، وتتبعهم أخيراً فى السهل والوعر ، وفى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة سنة ٤٥٩ هـ وصلت كتبهم إلى الملك المكرم مستجيرين .

وجاءه بعد ذلك كتاب من قائده « إسماعيل بن أبى يعفر »

يخبره فيه بانتصاراته على أهل يحصب وُرعين بجهة كحلان وهرّان ، وأنهم دانوا له بالطاعة بعد حرب سجال دامت فترة قصيرة ، فسر بذلك المكرم ، وأخذت الروح المعنوية تدبّ فى نفوس جنوده ، واتخذ من هذه الانتصارات المستعجلة وسيلة للاستعداد لنصر آخر ، وكان فى أكثر أوقاته يحث أتباعه ويذكرهم بما وعد الله عباده الصابرين من النصر والفوز ولو بعد حين .

وبينما كان المكرم وكبار رجال دولته مشغولين باتخاذ الأهبة لحفظ كيان دولتهم وتخليصها من سطوة أعدائهم ، وإعادة ما تحت أيديهم إلى حالتها الأولى ، ظهرت فى الأفق سحابة غطت هذا الجو برهة من الزمن ، وشغلت المكرم وأعوانه عن متابعة الأعداء ، تلك هى الحركة التى قام بها سنة ٤٥٩ هـ الأمير الزيدى حمزة بن أبى هاشم الحسنى ، بعد أن التف حوله فريق من الناس وبايعوه على القيام بدعوته ، فقام يحمل الدعوة على منكبيه واصفاً إياها بأنها دعوة التوحيد، ولم يكتف بذلك بل ادعى الإمامة وسمى نفسه أمير المؤمنين ، وهذا ما جعل العديد من القبائل تنضوى تحت لوائه ، وتصير له عوناً وحرباً على الصليحى ، فزحف إلى صنعاء ومعه خمسمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل من همدان وغيرهم إلى أن بلغ

الملوى فى بلاد أرحب ، وفى هذه الأثناء أرسل المكرم إلى قائده عامر بن سليمان الزواحى يدعوه من مغرب اليمن ، فوصل فى صبيحة اليوم التاسع عشر من ذى الحجة سنة **٤٥٩هـ** فى خمسمائة من حمير ، وخرج المكرم من صنعاء منضماً إليه ، وكان معه أيضاً القائد أحمد بن المظفر الصليحى ، ومعه جماعة من الجنود ، وذلك فى صباح الحادى والعشرين من ذى الحجة فى نفس السنة فوافوا الشريف بالملوى يوم الجمعة ، ووقع القتال بين الطرفين ، وكاد النصر يفلت من أنصار الملك المكرم ، ولكن الدائرة دارت أخيراً على الشريف وأصحابه الذين ولوا الأدبار هاربين تاركين الشريف وابنه ، فقتلا مع القواد وزعماء أكثر القبائل التى كانت معهما . هذا ، ويقول إدريس عماد الدين فى تاريخه « عيون الأخبار » :

« فما انجلت الموقعة إلا عن ثمانمائة قتيل من أصحاب الشريف ».

وعندما كانت هذه المعركة دائرة حول صنعاء كان الأعداء يترقبونها . ويعتقدون أن عليها تتوقف الأمور ، فلما انقشعت السحابة وتم النصر للصليحى ، عاد وأتباعه إلى التفكير فى تصفية موقفهم مع أعدائهم . وقد رأوا من الحكمة ألا يحاربوا النجاحيين فى زبيد قبل أن يثبتوا أقدامهم فى البلاد المجاورة المحيطة بصنعاء ، ويأخذوا الأمان

من جميع القبائل التى يخشون خروجها فى غيبتهم عن بلادهم . لذلك أرسل المكرم من قواده : أحمد بن المظفر الصليحى ، وإسماعيل بن أبى يعفر الصليحى ، وعامر بن سليمان الزواحى ، إلى حراز وكان كبار أهلها لا يزالون يدينون بالطاعة لسلطان الصليحيين ، على حين كان الدهماء منهم يحاصرون حصن مسار حيث كان به مالك بن شهاب الصليحى ، وفى طريقهم إلى هذا الحصن وافاهم الكثير من قبائل مجيح وكرار حيث قدموا فروض الطاعة وتقدموا بعد ذلك إلى حصن مسار فاستولوا عليه ، وأقام جيشهم ثمانية أيام فى حراز لم يتركوها إلا بعد أن أخذوا العهود على من حولها من القبائل ، ثم نهضوا لمحاربة بكيل ، وكانت شوكتهم على المنابذة قوية وصولتهم على المحاربة شديدة ، وشدتهم على الجلاد عتيدة وآمالهم فى التمادى بالعصيان بعيدة ، فبلغ جيش المكرم بكيل فى أول محرم سنة ٤٦٠ هـ وأمر القواد جندهم بالكف عن القتال فى ذلك اليوم ، وأخذوا يراسلون بكيلا ويلاطفونهم ، فأبوا إلا عتواً واستكباراً ، فلما حان وقت الظهيرة هبطت بكيل للقتال ، ونشبت المعركة الحاسمة ، وحمى وطيس القتال ، وكانت الدائرة على بكيل ، فقتل منهم ثلثمائة وعشرون رجلا من بينهم كثير من رؤسائهم وأولى النجدة فيهم ، وبعد أن

استقرت الأمور فى تلك الجهات عاد القواد الثلاثة إلى صنعاء غانمين ظافرين .

وفى هذه الأثناء انتهز بنو نجاح فرصة انشغال جيش المكرم فى إخضاع بكيل وغيرها من القبائل ، فأغار بلال وأبو الفتوح ابنا نجاح بعساكر كثيرة من العبيد والأحباش وأهل تهامة على أسعد بن عبد الله الصليحى فى حصن التعكر ، ووقع بين الطرفين قتال شديد دارت الدائرة منه على الأحباش بذى أشرق من قرى المخلاف . فولوا منهزمين وغنم أصحاب الصليحى أموالا كثيرة ونجا بلال وأبو الفتوح بعد أن نظرا الموت عياناً .

ولما ثبتت أقدام الدولة الصليحية نوعاً بعد القضاء على الثائرين والمنتقضين ، واستقرت الأمور فى صنعاء وما حولها من الحصون والأقاليم ، عول المكرم على السير إلى زُبيد لتصفية حسابه مع الأحول ، واتفق فى تلك الأيام أن جاءه من أمه الملكة الحرة أسماء كتاب لطيف ، وقد احتالت بأن أوصلته إلى سائل وجعلته فى رغيف فلما كسر السائل الرغيف وجد الكتاب . فأوصله إلى المكرم وقد وجد فيه خبراً مثيراً لحفائظ الأسرة الصليحية وللعرب عامة ، فجمع الناس وأوقفهم على ما تضمنه كتاب أمه ، فضجوا بالبكاء . ولم يزل المكرم يخطب

الناس فى كل مكان ، ويقول لهم : « من يكن يرغب فى الحياة فلا يكن معنا » إلى أن صفا له من الخلصاء عدد كبير فخطبهم وعرفهم بأنهم سيقدمون على الموت ، فمن أراد الرجوع فليرجع كما اتفق عند مسيره أن وصل عمران بن الفضل اليامى ، وحسين بن عمرو السنحانى ومنصور بن محمد اليامى فى جماعة كبيرة من العرب فانضموا إليه . وخرجوا قاصدين الأحباش ، وكان ذلك فى التاسع عشر من شهر صفر من السنة نفسها كما انضم إليهم أحمد بن المظفر الصليحى ، وعامر بن سليمان الزواحى بن عمرو السنحانى وأبو الحسين ابن مهلهل بن الدعام ، ومدافع بن الحسين الجبنى ، ومحمد ابن على اليامى . وأمر المكرم بألا يسير فى جيشه إلا كل من آنس فى نفسه الصبر والبأس على الآلام ، أو آثر الموت على الحياة ، ورضى بالشهادة . وترك المكرم فى صنعاء إسماعيل ابن أبى يعفر الصليحى نائباً عنه ، ومعه جماعة من أهل الحجاز وأهل حراز ، وقد أخذ قبل خروجه العهود والمواثيق على الشريف القاسم بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم العيانى ، وعلى أخيه ذى الشرفين محمد بن جعفر ، وأحسن إليهما ، وأمر للشريف بكسوة فاخرة ودنانير كثيرة ، فعاهداه على الطاعة وعدم الغدر فى غيبته فشكرهما على ذلك .

وخرج المكرم من قرية العَمد فى السادس من شهر صفر فى عشرة آلاف راجل وفارس فخطبهم ووعظهم بقوله :

« إننا لم ننزل لعرض من الدنيا نُصيبه ، ولا لمال نخزنه ، ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا ، سوى إدراكنا ثأرنا من هؤلاء العبيد والأحباش واستنقاذ حريمنا ، وإن قصدنا ليس الإضرار بأحد من الناس ولا تغيير شيء مما يملكون ، وعلينا ألا نتعدى على زروعهم ومواشيهم وحريمهم ونحن فى طريقنا .. وقد رجوت أن تكون سيرتكم جميلة ، ولكم حسن الأحدوثة فتنالون حميد العاقبة والثناء ، ولا أنهاكم عمن وتركم ونال منكم ، وحاول أن يفاجئكم » .

هذه الوصية تكشف عن فروسية المكرم وشهامته وكرم أخلاقه وعزة نفسه ، وتظهره لنا بمظهر الرجل الذى لا يريد إلا حقه ، كما تبين لنا أيضاً أنه ما أراد إلا أن يثأر لنفسه وقومه وينقذ والدته الملكة ، فنهى جنده عن كل ما يخل بالنظام والآداب ويسيء إلى سمعته ، ورجا ألا يكون تعدى جندى سبباً فى إثارة سخط العامة عليه .

ثم قام ثانية وخطب بجيشه السائر إلى المعركة خطبة بليغة قال فيها : « أيها المؤمنون لا أريد اليوم غير ما سمعتوه منى بالأمس وفيما قبله ، وفيما قلته كفاية . وقد كنت أعرض

عليكم الرجوع ، وفى المسافة إمكان. فأما اليوم فقد صار الخيار إلى عدوكم لأنكم توغلتم عليه . وإنما هو الموت أو العار بفرار لا يجدى » ، وتمثل بقول الشاعر المتنبى :

وأورد نفسى والمهند فى يدى موارد لا يصدرن من لا يحاوُل

ثم وطىء المكرم وجنوده تهامة من شرق زبيد فقصدوا قرية « التريبة » . ودخل المكرم مسجدها يوم الجمعة عند طلوع الفجر . وكان إمام المسجد الشيخ الزاهد محمد بن علية من أهل القرية قد صلى الصبح . ووقف يتلو بعض الآيات ، وإذا هو بفارس يركز رمحه ويسنده إلى الجناح الغربى . ثم يقوم فيصلى فقال الشيخ : « مارأيت شخصاً فى ولد آدم أتم منه خلقة ، ولا أحسن منظراً . وروائحه روائح الملوك » . ولم يلبث الصباح أن تجلى . وكان المكرم واقفاً عنده حتى ختم . ودعا وأمن هو ومن معه على الدعاء . وإذا الخيل قد أقبلت عند طلوع الشمس أرسالا . وكل رعيل منهم يسلم ويقف . وكانت تحيتهم له : أنعم الله صباحك مولانا . وأدام عزك . ولا يزيدهم على الرد أكثر من قوله : مرحباً يا وجوه العرب . إلى أن تكاملوا ، ثم خرجوا من المسجد ، فركبوا خيولهم وقصدوا باب الشبارق ، وهو الباب الشرقى لبلدة زبيد ، وحين دنا المكرم من زُبيد عبأ

جيشه . فكان هو وأحمد بن المظفر الصليحى ، وعامر بن سليمان الزواحى . وأبو الحسين بن المهلهل ، والحسين بن عمرو السنحانى فى القلب ، ومعهم قبائل نهد وسنحان وحمير . وكان عمران بن الفضل اليامى ، ومدافع بن الحسن الجنبى ، ومحمد بن على اليامى فى قبائل همدان من يام وجنب وسواهم فى الميمنة ، وكان مالك بن شهاب الصليحى فى الميسرة ومعه الحرازيون . ثم أقبلوا على الأحباش وهم صافون على باب الشبارق ، وكانوا ستة كراديس . وعددهم ثمانية عشر ألفاً . وهم مثل العارض الأسود . فتقابل الجيشان فى يوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٤٦٠ هـ . وقاتل فى هذا اليوم سعيد الأحول وجيشه قتالا عنيداً حتى انطوى عليهم الجناحان . وهنا تراجعوا تراجعاً مخيفاً وهزموا شرّ هزيمة ، ولكن خيل الصليحيين جالت عليهم جولة واحدة فانطحنوا طحن الرحى . وأتى القتل على أكثرهم . وكان سعيد الأحول قد أعد خيلا مضمرة على الباب الغربى المسمى بباب النخل . فسار مع من سلم من خواصه إلى البحر ، وقد أعدت لهم سفن للنجاة هنالك . فركبها من فوره . وسار نحو جزيرة « دهلك » فى ثغر مدينة عدن . وكان سبب نجاته انشغال المكرم ومن معه فى الوصول إلى والدته

الملكة السيدة أسماء . فلم يتتبع المنهزمين أحد . ودخلت العرب زُبيد عنوة وظل القتال دائراً فيها حتى صلاة الظهر .

وكان المكرم أول من وقف تحت الرأسين المصلوبين أمام شباك البيت الذى تقيم فيه والدته الملكة أسماء . فقال لها وكان قد تنكر :

« أدام الله عزك يامولاتنا » فقالت : مرحباً بأوجه العرب. ثم سألته : من تكون ؟ فقال لها : « أنا أحمد بن على بن محمد » فقالت : إن أحمد بن على فى العرب كثير . فاحسر عن وجهك حتى أعرفك — فرفع المكرم عن وجهه . فقالت : مرحباً بمولانا المكرم . من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ .

ثم دخل رؤساء العرب فسلموا عليها . وقد كشفت عن وجهها . وكانت هذه عادتها فى أيام زوجها الملك على الصليحى . وذلك لسمو قدرها عمن يحتجب عنه النساء . وقد نزل المكرم عن ظهر جواده وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر . وعفر خده بالتراب . وأحرق الدار التى اعتصم فيها الأحباش .

هنا يذكر التاريخ أن المكرم لما دخل زُبيد لم يجعل لأحد سبيلا إلى حريم بنى نجاح . وأطلق من وقع فى أيدى الجند من أولاد الأحباش . وقد يكون راعى فى ذلك ما سار الأحول

عليه من سيرة طيبة فى أثناء اعتقال الملكة أسماء وحرائر آل الصليحى .

وهنا لا بد لنا من التساؤل : لماذا لم ينتقم المكرم لأبيه وعمه وأهله بالفتك بهؤلاء الذين وقعوا أسرى فى يديه ؟ الجواب : هو أن المكرم – كما عرف عن أبيه من قبل حسن السيرة فى الرعية ، والعفو عند المقدرة ، والتسامح مع المغلوبين – كان هو أيضاً ، فقد تمسك بهذه الصفات ؛ لأنه وجد فيها الخير كله . وكان يرى أن إدراك الثأر ليس فى الفتك بالأسرى ، بل بالاكتفاء بالقضاء على الجيش المعادى ، وتخليص أمه وأقاربه من الأسر ؛ مضافاً إلى ذلك أن معاملة الناس بالحسنى تقرب القلوب والأنفس إلى الطاعة . وبالفعل ملك المكرم مشاعر الناس بانتصاراته ، وبرّ بوعده الذى قطعه على نفسه أمام جيشه ، ولم يكن يرمى من وراء ذلك إلا تخليص أمه ولم يكن غرضه انتهاك الحرمات وإثارة الفتن كما ذكرنا .

وقد كتب بتلك الوقائع محبته فى نفوس الأصدقاء والأعداء على السواء ، وأطلق الألسن تلهج بالثناء عليه ، واشتهر أمره بما أظهره من ضروب الشجاعة والتسامح وعلو الهمة ، وارتفعت مكانته لدى الجميع على السواء ، فأحبه المُوالى

والعائد ، وآثروا الخضوع إليه لا خوفاً من قوة بطشه بل رغبة فى عدله وشهامته ، وقال الناس فيه : « والله إن الذى سماه ذا السيفين لحكيم » . وقبل أن يغادر المكرم زبيد نقل رأس والده وعمه إلى صنعاء وبنى عليهما مشهداً . وفى ذلك قال عُمَارة اليمنى : « وأنا أدركت مشهد الرأسين » . كما أقام أياماً مهّد فيها قواعد البلاد ، وأقام رسم الدعوة الإسماعيلية الهادية على العادة الجارية .

وفى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٩٦٠ هـ خرج المكرم من زُبيد يريد الإجهاز على الأحباش الهاربين ، غيْر أنه وصل إليه فى هذه الأثناء من إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى عامله بصنعاء كتاب يذكر فيه أن الشريف قاسم ابن جعفر العيانى نقض العهد ، وأنه اتخذ من تغيب الجيش فرصة للانتقاض على صنعاء ، كما جاء فى هذا الكتاب أن الوالى إسماعيل اشتد عليه المرض ، وأن الحجازيين وأهل حراز قد وقع بينهم النزاع وساءت العلاقات ؛ فخاف المكرم أن ينال المخالفون من صنعاء ماسولت لهم أوهامهم ، فخف مسرعاً بالعودة ، ومعه أمه الملكة أسماء والحرائر الصليحيات . وفى رجوعها إلى قصرها فى صنعاء وخلاصها من الأسر قال الشاعر عمرو بن يحي الهيثمى :

أوبة أسماء إلى قصرها بعد فراق الملك الأوحد
وبعد عوصاء الخطوب التى رمت بنى قحطان بالمؤيد
كرجعة الشمس وقد جنّها دُجنٌ وسربال دجى أسود
فيالها من نعمة أصلها بأس ابنها بانى العلى أحمد

إننا نلاحظ أنهً فى هذه الحروب قد ظهرت الروح الوطنية واضحة جلية عند العرب عندما أخذوا يثيرون حماستهم على الأحباش باسم القومية العربية . وكان الأحباش يشعرون بأن العرب لن يتركوا ثأرهم . وهذا يتضح من خطاب جياش ابن نجاح لأخيه سعيد الأحول بعد مقتل الملك على الصليحى فقد نصح له أن يفك أسر السيدة الملكة أسماء . ويردها إلى ابنها المكرم بعد مقتل زوجها : وأن يعفو عن بقية آل الصليحى . ويكتب للمكرم ما معناه أننا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا . وقد أحسنا إليك . وجملناك بصيانة والدتك ، والعفو عن بنى عمك . وزاد على قوله : بأنك إن فعلت ذلك لم ينازعك أحد فى ملك تهامة أبداً . وإن خالفت أغارت عليك قبائل العرب وطلبت بثأرها . فلم يجبه أخوه إلى طلبه. وتمثل بقول الشاعر :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا

ونعود إلى سيرة المكرم وعودته إلى صنعاء . فقد وجد الوالى

الأمير إسماعيل بن أبى يعفر الصليحى قد اشتدت عليه العلة . ولم يمهله المرض غير عشرة أيام . ثم وافاه الأجل . فحزن المكرم لفقده . لأنه كان ركناً من أركان الدولة . وكانت قبائل يحصب وعنس ورعين تدين له بالولاء وتخاف بأسه . وأخيراً عين مكانه ابنه عبد الله . وأطلق يده فى كل ما كان يضطلع به أبوه .

ثم أخذ المكرم بعد ذلك يعالج الأمور التى تعقدت فى أثناء غيابه ، ويصلح ما أفسده الطامعون . وكان أول هذه الأمور القضاء على الفتنة التى قام بها الشريف القاسم بن أبى جعفر العيانى الذى نقض عهده واستمال ذبيان وبنى جبير والدعام ، وحرضهم على الثورة ضد الملك المكرم . وقد وعدهم بظهور عمه الحسين بن القاسم الحسنى ، وكانت همدان قد قتلته قبل ذلك الوقت بستين عاماً . وأفهمهم بأنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً . فمال إليه فريق من الناس .

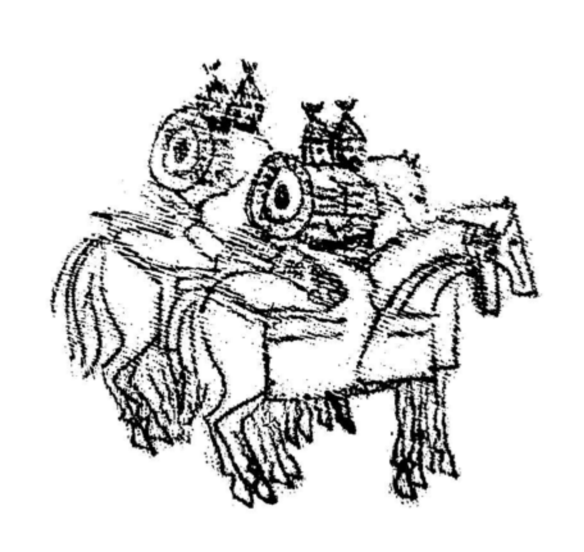
وقد كانت كل هذه الأمور مدعاة للمكرم بأن يتوجه إلى ذبيان بجيشه ويحاربها بحجة أنهم قد استولوا على أراض له ، وفعلوا أفعالا لا يمكن السكوت عليها وما زال بها حتى أصلح ما فسد منها . فقدم له كبراؤها الولاء ، وهنا عاتبهم

على سوء تصرفهم . وقربهم وأحسن إليهم . ولما كان شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ عاهدوه على السمع والطاعة ، وأن يخرجوا فى كل مكان يخرج فيه المكرم إلا تهامة — فإنهم بالخيار إن شاءوا خرجوا وإن شاءوا تركوا وقعدوا وأنهم لايؤوون الشريف القاسم ولا يوالونه .

ولم يكتف الملك المكرم بذلك بل سار لإصلاح المغرب اليمنى وانتهى إلى اللومى حيث وافاه كتــاب والدته السيدة الحرة أسماء بنت شهاب تخبره بورود كتابين من أسعد ابن عبد الله الصليحى . ومن على بن سويد . وعبد الله ابن معمر وقد جاء فيهما أن حسين بن مغيرة التبعى وأبا العباس السخطى وأبا إسماعيل الكلابى قد نزلوا إلى الحمراء بجميع أهل يحصب ورعين ، وأن سعيداً الأحول طلع من تهامة بجمع عظيم عازماً على فتح صنعاء ، وأن أخوى الأحول فى جمع آخر مقابلون لجيش أسعد بن عبد الله الصليحى بذى أشرق ، وأنهم يستعجلون قدوم الملك المكرم ؛ فلم يتمكن المكرم من الرجوع من مغرب اليمن . لأنه كان قد قارب جبل مسوّر فلهذا قام المكرم من اللومى . فنزل بقرية مدع . فلقيه هنالك محمد بن إبراهيم الصليحى وحاشد بن كديس الصليحى عامل مسور ومشايخ آل لاعة ، ولحقه عامر بن سليمان الزواحى .

ولما صار المكرم بالجبل المقابل لجبل حملان المطل على كافة بلاد المغرب وجدهم معتصمين فيه ، فظل حتى أسدل الليل ستاره ، وعند الصباح أمر جنده بالصعود على جبل حملان من غربى الوادى تحت قيادة سليمان بن عامر الزواحى ، ومن أعلى الوادى تحت قيادة محمد بن إبراهيم وحاشد بن كديس ، وطلع المكرم بفرقة من جهة وسط الوادى . فأقبل أهل الجبل من كل حدب ينسلون ويكرون . وكان معظمهم فى الناحية التى فيها المكرم . فنزل المكرم عن جواده وصعد هو الجبل فى مقدمتهم لا تثنيه النبال ولا الأحجار مما اضطر أهل الجبل إلى الفرار أخيراً . فلما ملك المكرم جبل حملان جاءوا إليه من جميع المغرب مذعنين فعفا عنهم وأحسن إليهم .

وعلم المكرم وهو فى حملان أن سعيداً الأحول قد صار بالمخلاف ، وأن التبعى والسخطى والكلالى ويعفر بن الكرندى ويحصب ورعين قد ساروا صفّاً واحداً فى جموع عظيمة بالشوافى يهددون سيادة الدولة الصليحية . فذهب إلى صنعاء ، ومنها اتجه إلى المخلاف . ثم انتهى أخيراً إلى وادى بينون . فأخضع بنى صعب من عنس وبنى الحارث ومذحج ، وما زال فى طريقه حتى وصل إلى جبل الشعر الذى تحصن فيه التبعى والسخطى فى معظم يحصب ودرعين وعنس . وهم أهل النجدة والبأس



فقام المكرم بجميع عساكره بهجوم عنيف فى الوقت المعين على رأس الجبل معلنين بالتكبير والتهليل . فأجفل أهل الجبل وولوا الأدبار تاركين كثيراً من الغنم والمتاع . وفر التبعى والسخطى واعتصما بحصن القرانح شمالى غربى صنعاء . فأمر المكرم بحصار الحصن وقتالهما . ولما علم التبعى بكرم الملك المكرم وتسامحه وعفوه سلم نفسه فأعطاه الأمان .

وكان من أثر هذه السياسة المرنة أن أقبل الناس على المكرم يطلبون الأمان . فأجابهم إلى ما أرادوا . إلا أن ابن مغيرة التبعى فر ولحق بسعيد الأحول . وفى اليوم التاسع والعشرين من رجب سنة ٤٦١هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها فى اليوم السابع من شعبان . وهو يكثر من حمد الله والثناء على الإمام الفاطمى المستنصر بالله الذى شمله ببركته وولائه .

فى تلك الفترة عم الهدوء أنحاء دولة المكرم اليمنية . بعد أن قضى على الفتن والثورات . لأن أعداءه وجدوا فيه قائداً لا تلين قناته . كما وجدوا فى أنصاره قوة عزيمة وإيماناً واستبسالا فى الحروب تدل على ثقتهم بملكهم . وكل هذا كان مشجعاً له وحافزاً على التفكير بالثأر من سعيد الأحول وبنى جلدته الأحباش . وذلك ليستريح من شرورهم وآثامهم .

أجل : كان المكرم يرى أن عدوه التقليدى لايزال

قائماً . وأن والده ذهب غدراً . وأن عليه ألا ينام عن الثأر ، فالدم لا يعوض إلا بالدم . ولا جزاء لمهرقه غير القتل . والتبعة الأولى تقع على عاتق العبيد والأحباش ؛ فلم يكد المكرم يستقر شهراً واحداً فى قاعدة ملكه حتى قام يستنهض العرب من جديد للأخذ بالثأر من الأحباش ، فأمر برسالة قرئت على أعوانه فى الوعظ والتذكير وفضل الجهاد وما فيه من الثواب العظيم ، واستبشر الناس بذلك ، وأجابوه إلى ما أراد وقام الشعراء يحرضون العرب على وجوب الأخذ بثأر مليكهم العظيم على الصليحى . ومن هؤلاء الشاعر الكبير الحسين ابن على القمى الذى نظم قصيدة طويلة جاء فيها :

أقحطان هزّى البيض واعتقلى السمرا
وردّى العوالى من دماء العدا حُمْرا
ولا تهدرى ثأر المظفّر إنه
بنى لكم مجداً وشاد لكم فخرا
سرى نحو بيت الله ، لله قاصداً
يروم من الله المثُوبة والأجرا

ولما صحت عزائم العرب على القتال ، بعد أن استنهضهم الملك والشعراء والخطباء قام الملك المكرم من صنعاء فى غرة شهر رمضان سنة ٤٦١ هـ قاصداً سعيداً الأحول فى زبيد ،

فوصل إلى العمد فى اليوم الخامس من ذلك الشهر ، وعرض عسكره فى خارج القرية ، ثم وعظهم وحثهم على عدم النهب والسلب وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم . وأنهم لا يريدون إلا قصد عدوهم فأطاعوه .

وفى صبيحة اليوم السابع من ذلك الشهر توجه المكرم إلى زُبيد حيث جاءته الأخبار بأن سعيداً الأحول قد تحرك فى أول رمضان إلى المخلاف وإلى عدن فأرسل المكرم قائده عامر بن سليمان الزواحى فى جل من معه من جنب وسنحان وحمير إلى جهة نقيل صيد، واتجه المكرم بمن معه من همدان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث كان سعيد الأحول وجيشه قد تعلقوا بالجبل فملك الرعب قلوب الأحباش ، وأيقنوا بالهلاك . وهنا حمل المكرم عليهم حملة من يختار الموت على الحياة الفانية . فهزمهم هزيمة منكرة ، وأدرك رجل من قبيلة شاكر الهمدانية سعيداً الأحول فقتله عند قرية «مآبة» وأتى برأسه إلى المكرم . وقتل بلال بن نجاح وأخوه مالك بجهة نقيل صيد على يد عامر بن سليمان الزواحى . وعاد المكرم بعد ذلك إلى زُبيد . وفى اليوم الأول من شوال صلى بالناس العيد . وخطبهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه على ما قيضه له من الأخذ بثأره .

وبعد كل هذا ترك المكرم زُبيد بعد أن ولى عليها الأمير سبأ بن أحمد الصليحى ثم سار وراء جياش بن نجاح فوصل إلى الهجر . وفيها علم أنه قد هرب إلى بلاد الهند . فاتجه إلى الساعد . وفى هذه الأثناء وصلت السجلات المستنصرية تتضمن التشريعات الإمامية . فقرأها على الناس . ثم جاءته الشعراء مهنئين بالنصر . وبعد ذلك ترك قرية الساعد فى نفس اليوم فبلغ المهجم . وأمر بحمل جثتى والده وعمه فى تابوتين إلى زبيد . ثم سار بهما إلى صنعاء . فدفنهما إلى يمين الجبانة العامة وأمر ببناء مشهد جامع لهما .

وأخيراً استقر المكرم فى صنعاء، بعد أن أدّب العصاة. ووطد الاستقرار لليمن . وأخذ يصرف أمور دولته بحكمة وإدارة ومرونة . إلى أن توفيت أمه أسماء بنت شهاب بصنعاء سنة ٤٦٧ هـ . وهنا لابد من القول بأن كتب التاريخ تخالف إدريس عماد الدين فى ذلك فتؤكد أن وفاتها كانت سنة ٤٧٩هـ، ولكن الحقيقة تؤيد ما ذكره المؤرخ إدريس عماد الدين فى تاريخه « عيون الأخبار » . وكانت قبل وفاتها قد زوجته بأروى الصليحى . وبعد أن تزوج منها رأت بثاقب فكرها أن تجعل ذى جبلة دار قرار . وذى جبلة مدينة جميلة بمخلاف جعفر اختطها عبد الله الصليحى بأمر أخيه الملك على الصليحى .

وجبلة على ما قيل اسم رجل يهودى كان يسكن فيها ويعمل الفخار فى الموضع الذى بنى فيه عبد الله الصليحى دار العز الأولى . وهى تسمى مدينة النهرين لأنها مدينة بين نهرين كبيرين جاريين فى الصيف والشتاء . ويقال فى المثل المشهور إن جبلة لا يدخلها أحد إلا طاهر ، وصباحها صباح عروس. ولما انتقل المكرم إليها اختط فيها دار العز الثانية فى ذى بور ، وكان حائطاً فيه حدائق وأشجار كثيرة . وهو مطل على النهرين وعلى الدار الأولى .

ويقول عبد الله بن يعلى فى وصف ذى جبلة :

هبّ النسيم فبت كالحيران   شوقاً إلى الأهلين والجيران
ما مصر ؟ ما بغداد ؟ ماطبرية   كمدينة قد حفها نهران
خدد لها شام وحب مشرق   والتعكر السامى الرفيع يمان

هذا ويحدثنا التاريخ أن الملكة أروى لما طلبت إليه أن ينتقل إلى قصره كانت تبغى له الاستقرار والراحة . فلما انتقل إلى ذى جبلة قالت : العيش هنا أفضل وأسلم للمملكة وأثبت لقواعدها فهى متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل وبها يخصب العيش ويطيب المحل .

ولماجرّب المكرم اقتنع بوجهة نظرها . وجعل ذا جبلة له مقرّاً بعد أن ترك صنعاء ، وولى عليها عمران بن الفضل

اليامى ، وأبا سعود بن أسعد بن شهاب ، وبعد استقراره فترة قصيرة بدار العز بذى جبلة اشتد عليه مرض الفالج الذى أصابه بعد تخليص والدته أسماء من الأسر بزَبيد . فأشار عليه الأطباء أن يحتجب عن الناس لذلك السبب . فترك ذا جبلة وطلع إلى حصن التعكر بعد أن فوض ازوجته شؤون إدارة الدولة .

وكان الملك المكرم قد ولّى على صنعاء — كما ذكرنا — القاضى عمران بن الفضل اليامى الهمدانى أحد أقطاب الدولة الصليحية عندما انتقل إلى ذى جبلة ، ثم عاد فعزله عنها ، وكان ذلك من الأسباب التى باعدت بينه وبين القاضى عمران . وفى ذلك يقول القاضى عمران مخاطباً الملك المكرم والأمير سبأ بن أحمد الصليحى :

ولا تجرحا بالعزل أكباد معشر — إذا غضبوا علّ القنا وتكسّرا
فلو ان مولانا معداً أتاكما بعزلٍ — تولى الكل منا وأدبرا
فلا تفرقا من لفه والداكما وعوداً — إلى عقليكما وتدبرا
فإن أنتما أنكرتما ما نظمته — فصدقى غداً من طلعة الشمس أزهرا

وفى أثناء مرض المكرم وصل إلى باب التعكر المسمّى بباب كليب القاضى عمران ومعه جماعة من الناس يريدون مقابلته ، فمنعه القائمون على خدمة المكرم من دخول الحصن

لما به من المرض ، وصرفوا أمره إلى الملكة أروى بذى جبلة ، ولكن هذا التصرف أغضب القاضى عمران وقال :

أباب كليب إننى لك هاجر — على أننى داع لمولاك شاكر

وكان المكرم إذا دخل عمران بن الفضل ينزل عن السرير ويقوم إليه ويأخذ بيده فيصعده معه إلى السرير ، وقد دخل القاضى إليه ذات يوم مع سميه عمران بن الشاعر العثمانى الذى هجا الملك على الصليحى لما ظفر به سعيد الأحول . وعندما دخل القاضى عمران قال : لا أصعد السرير حتّى تقضى لى حاجتى . فقال له المكرم هى مقضيّة ولو كانت فى أمان العثمانى . فقال عمران ذلك ما أريد . وهذا الغلام ولده ، فقام الغلام وأنشد قصيدة أبيه ومطلعها :

ماذا ترد على الركبان عدنان — إن لم تجد بجميل الصفح قحطان

فقال المكرم بعد إتمام الإنشاد : إن صدق ظنى فإن أباك قد هلك ... ويروى أن الشاعر قد هلك يومئذ قبل وصول ولده إليه .

والواقع أن الملك المكرم لم يطلع التعكر إلا بمشورة الأطباء عليه بالاعتكاف . ولكن ما لبثت أن عادت المياه إلى مجاريها مرة أخرى بعد وفاة الملك المكرم ، لأن القاضى عمران حارب النجاحيين فى عهد الملكة أروى ، وقتل أخيراً فى

موقعة الكظائم سنة ٤٧٩ ه كما سيأتى ذكره .

والآن نقول — ونحن نأتى إلى الفصل الأخير من سيرة الملك المكرم—إن الدولة الصليحية فى عهده بلغت أقصى اتساعها . ولم تكسب أرضاً ولا نفوذاً أكثر مما كسبته فى ذلك العهد الزاهر . فالمكرم قام بأمر الملك فى اليمن وما يتبعها خير قيام ، و لم تحُل الظروف التى حاقت بالدولة بعد مقتل والده العظيم الملك على الصليحى دون إتمام البناء وتأمين الرخاء للشعب اليمنى ، ولقد كان للانتصارات الحاسمة وتذليل الصعاب التى أحرزها فى وقت قصير أكبر الأثر فى تكوين وحدة اليمن التى تمت فى عهده ، وهى التى جعلت المؤرخين يصفونه :

بأنه كان ملكاً شجاعاً شهماً جواداً مقداماً سموحاً حتى مع أعدائه عند المقدرة . ولهذا لقّبه الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله « ذا السيفين » و « داعى السيف » . وكان فوق ذلك فصيحاً خطيباً مشهوراً بالثبات والإقدام . ولم يكن فى زمانه من يستطيع حمل رمحه وسيفه وقوسه . أوله شدة قوته ، وعظيم شجاعته . وجمال خلقته . غير أن الأقدار لم تسنح له لإكمال البناء والتربع على العرش الكبير الذى أقامه والده ورواه بدمه . ثم جاء هو فناضل لأجل الإبقاء عليه معززاً وطيد الأركان ، وأخيراً ضحى بصحته ووجوده لأجله .

ومهما يكن من أمر فإن الملك المكرم الصليحى بشجاعته وشهامته وفصاحته وكرمه وتسامحه — ظل برغم مرض الفالج الذى أصابه فجأة حين خلص أمه السيدة الحرة من الأسر يتتبع سير الأمور عن كثب من حصن التعكر . وإن لم يكن يتدخل بها عالماً أن أمور الدولة وشؤونها بأيدٍ أمينة ، ويكفى أن تكون زوجته الوفية الملكة أروى الصليحى هى التى تدير شؤونها وتشرف على تدبير أمورها .

وأخيراً مات الملك المكرم فى حصن التعكر سنة ٤٧٧ ه وبذلك ختمت سيرة مجاهد كبير عاش لأجل بلاده . وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ اليمن وهى لا تقل عمن سبقوها . أعنى بها الملكة أروى الصليحى .

العهد الثالث

الملكة أروى الصليحى

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب« الملكة الحرة » حبًّا بها وإجلالاً لها . وهى « أروى بنت أحمد بن محمد الصليحى » .

ولدت سنة ٤٤٠ هـ . ويروى أن أباها أحمد بن محمد الصليحى هو الذى بعثه الملك على الصليحى مع الوفد اليمنى إلى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله بعد استيلائه على حصن مسار ، لكى يستأذن الخليفة فى إظهار الدعوة الإسماعيلية فى أنحاء اليمن . ويروى التاريخ أنه مات فى عدن بسقوط البيت الذى كان يسكنه عليه ؛ وأروى كانت فى ذلك الوقت طفلة صغيرة .

أمها « الرواح » بنت الفارع بن موسى الصليحى . وقد تزوجت من عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحى بعد موت زوجها أحمد . فرزقت منه سليمان بن عامر الزواحى القائد الكبير الذى لعب دوراً هامًّا فى الفتوحات الصُّليحية ، فكان أخاً لأروى لأمها .

قامت بتربيتها وتهذيبها وتأديبها السيدة أسماء بنت شهاب

زوجة الملك على الصليحى بعد زواج أمها ، فنشأتها تنشئة طيبة فاضلة ، وكانت موضع اهتمام الملك على الصليحى أيضاً، فكثيراً ما كان يقول لأسماء: « أكرميها ، فهى — والله — كافلة ذرارينا وحافظة هذ الأمر على من بقى منا » .

كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ماتمتعت به من جمال الخلقة ، فكانت بيضاء اللون مشربة بحمرة ، مديدة القامة ، معتدلة البدن. تميل إلى السمنة ، كاملة المحاسن ، جهورية الصوت ، قارئة كاتبة ، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب ، ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على غزارة مادتها ، وكان يقال لها : « بلقيس اليمن الصغرى » لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها . وكانت إلى جانب ذلك متبحرة فى علم التأويل والتنزيل الإسماعيليين ، وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر ، ويأخذون عنها ويرجعون إليها ، وامتازت أيضاً بالصلاح والتقوى والخبرة الواسعة والمعرفة الفائقة بأحوال الناس مما ساعدها على إدارة شؤون بلادها فى ظروف حرجة أحاطت بالبلاد اليمنية . ويقول التاريخ: إنها كانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل وعبادة وعلم ، تفوق الرجال ، فضلا عن ربات الحجال ، ولذلك استحقت مدح الشاعر القائل :

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخر للهلال

وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال فكان الخليفة الإمام المستنصر بالله الفاطمى قد أصدر إليها أجل أبواب دعوته فأفادها من علوم الدعوة الإسماعيلية ما رفعها عن حدود الدعاة إلى مقام الحجج الكبار .

فالصفات الكريمة التى لم تتجمع قط إلا فى القليل من نساء العالم تجمعت فى الملكة الحرة أروى .

وإنه من الطبيعى بعدما علمنا كل هذا عن السيدة الحرة أروى، وبعدما وقفنا على مقدار اهتمام الملك على الصليحى وزوجته أسماء بنت شهاب وعنايتهما بها ، أن يختاراها زوجة لابنهما الملك المكرم . وقد اقترنت به بالفعل بعد أن تولى منصب ولاية العهد سنة ٤٥٨ هـ . وكان لها من العمر ثمانى عشرة سنة . وفى هذا الزواج قال الشاعر القمى :

وكريمة الحسبين يكنف قصرها	أسد تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغض عن	تمثالها المرئى فى مرآتها
ظفرت يداك بها فبخ إنما	لك تذخر العلياء مضنوناتها

وكان الملك على الصليحى قد أصدقها عدن حين زوجها من ابنه المكرم ولم يزل ارتفاع عدن من حين زواجها يرفع إليها . وهو مائة ألف تزيد تارة وتنقص .

وقد ولدت للملك المكرم علياً ومحمداً وفاطمة وأم همدان. فأما على ومحمد فسنتكلم عنهما فيما بعد ؛ وأما أم همدان فقد تزوجت من ابن خالها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان الزواحى ، فرزقت منه بعبد المستعلى . وتوفيت سنة ٥١٦ هـ وأما فاطمة فتزوجت من شمس المعالى على بن سبأ بن أحمد الصليحى وتوفيت سنة ٥٣٤ هـ .

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسى فى عهد زوجها الملك المكرم . وفى هذا يقول عمارة اليمنى بتاريخه : « لما توفيت أسماء بنت شهاب ، والدة المكرم ؛ فوّض الأمر لزوجته الملكة أروى . فقامت بالأمر وحدها واستعفته فى نفسها ؛ وقالت : إن المرأة التى تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر ، فدعنى وما أنا بصدده .

وكانت تستشير فى هذه المدة القاضى عمران بن الفضل اليامى ، وأبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحى ، ولما توفى زوجها سنة ٤٧٧ هـ ؛ حملت الملكة أروى وحدها عبء هذه المسئولية الجسيمة . وأصبحت بتفويض من الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله تتصرف فى أمور الدولة والدعوة الإسماعيلية فى اليمن والهند وعُمان .

ولم يقف حسن سعى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر

بالله عند هذا الحد، بل أمد الملك على بن المكرم بالتأييد، وأوصاه بأن يهتدى بهدى أمير المؤمنين ، كما أنه أرسل إلى أخيه الأمير محمد بن المكرم يأمره بطاعة أخيه ومؤازرته وموالاة من يوالى أمير المؤمنين ومعاداة أعدائه . وكذلك إلى كافة الأمراء والقواد والمقدمين والمؤمنين ، بل إلى الملكة أروى نفسها يأمرها بضرورة طاعة الملك على والامتثال لأمره ، وأن تعول عليه فى سرها وجهرها . وأن تستعين بأهل الدعوة فى اليمن على من عاداهم وعاداها .

وفى سنة ٤٨٠ هـ أرسل الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله سجلاً آخر إلى الملك على لقبه فيه بلقب « سليل الدعوة ونجلها » . وقد قصد بذلك أن يشعر الجماعة فى بلاد اليمن بمكانة على من الدعوة . ويبيّن لهم مدى تأييد الإمام له . وأنه قد اختاره فى رئاسة الدعوة والدولة فى اليمن بالنظر لما كان لآبائه من خدمات وفضل على الدعوة الإسماعيلية .

هذا وتدل سياسة المستنصر هذه على بعد نظر فى الأمور وحسن إدارة . فقد رفض تولية سبأ بن أحمد الصليحى الملك بالرغم من وصية المكرم له ، وولى علىّ بن المكرم على رغم صغر سنه ، لأنه يعلم تمام العلم أن الملكة أروى والدته لها من القوة والكفاية ما يمكن الاعتماد عليها فى تنفيذ السياسة

التى ترضى الفاطميين . ولاريب فهى سيدة عريقة الأصل كريمة المحتد تمرنت على إدارة شؤون المملكة فكانت أبعد نظراً من الملوك الرجال أنفسهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أدرك الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله شيئاً آخر هو أن المحافظة على مبدأ الوراثة فى الابن الأكبر خير ضمان لعدم إثارة المنازعات الداخلية بين الأحفاد والأعمام والأسرة الواحدة ، ولا سيما أن هذا المبدأ كان معمولا به فى عهد الدولة الفاطمية إلى أيام الإمام المستنصر بالله بالنسبة للعائلة الفاطمية الحاكمة . ولهذا كله نراه يولى الطفلَ على بن المكرم شؤون الملك والدعوة بدلا من ابن عمه سبأ بالرغم من أن الأخير كانت تؤهله لهذا المنصب سنّه وشخصيته الممتازة ومحبة الناس، وغيرته على الدولة ودأبه على رفع شأنها ، كما تؤهله أيضاً مواقفه الحميدة فى خدمة الدولة فى عهد الملك المكرم ، وأن وصية الملك المكرم تعد أحسن شهادة بذلك .

أجل ؛ لقد كانت مؤازرة الإمام المستنصر بالله للملكة أروى وابنها على بن المكرم دليلا على ثقة غالية وحبًّا بجمع كلمة أهل الدعوة وجعلها حولها ودعوة جميع المسلمين على وجوب طاعتها وسبباً يجعل الأمير سبأ يتخلى من المطالبة

بحقه . وتجاه هذه العواصف الداخلية تعصف بالمملكة الفتية ، وإزاء هذه الانقسامات . فكرت الملكة أروى بثاقب نظرها وحسن سياستها وتقديرها الصحيح لعواقب الأمور . واستطاعت أن تقضى على الفتنة فى مهدها عندما جعلت الأمير سبأ نائباً عن ولدها بشؤون الملك وحامياً لذمار دولته من المعتدين . وبذلك قضت على كل محاولة للفساد أو النيل من الدولة .

ومهما يكن من أمر فإن الأمير سبأ أبلى فى ذلك بلاء حسناً . ودخل فى حروب متوالية مع جيَّاش بن نجاح الذى كان قد هرب إلى الهند حينما قتل سعيد الأحول بن نجاح سنة ٤٦١ هـ . وما لبث أن عاد إلى اليمن متنكراً حينما علم بمرض المكرم واضطراب أحوال دولته . وكان قد اشترى فى الهند جارية هندية تزوج منها وأحضرها معه إلى اليمن ، وقد رزق منها ابناً سماه « الفاتك » تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٩٨ هـ .

ومما هو جدير بالذكر أن جياشاً وزوجته الهندية ظلا مختفيين بزُبيد حتى عرف أن الوالى أسعد بن عراف قد حدث بينه وبين وزيره على بن القم نزاع اضطر الوزير أن يقول : « لو وجدت كلباً من آل نجاح لملكته زُبيد » ، فاغتبط جياش من هذه الأخبار . وأخذ يعد العدة ،

فاتصل بالأحباش من المتفرقين بالبلاد وأمرهم بالاستعداد ، كما اتصل بالوزير على بن القم وتعاهدا على كتمان الأمر حتى يتخلصا من حاكم زُبيد أسعد بن عراف . ولما استوثق جيّاش . وأكمل استعداداته لنفسه . أمر بضرب الطبول والأبواق . فثارت معه عامة أهل المدينة وطردوا الوالى . ولم يمض شهر واحد حتى أصبح يركب فى عشرين ألف محارب من الأحباش وبنى عمه وعشيرته والموالين له .

أجل : دخل سبأ فى حروب متواصلة مع جياش . وذلك لأن حصون بنى المظفر كانت مطلة على تهامة وهى أقرب إليها من جميع الجبال . فكان إذا برد النسيم نزح العرب بقيادة سبأ إليها . وارتحل جياش عن البلاد . فيقيم سبأ لجباية الخراج ، وبسط العدل . وكان يحتسب للعمال ما قبض منهم جياش فى أشهر الصيف والخريف . فإذا انقضى الشتاء وانصرم الربيع ارتحل بمن معه من العرب من تهامة إلى الجبال وملك جياش تهامة إما بالقتال وإما لشدة الحر وانتشار الوباء فى العرب . ويقول المؤرخ عُمارة : « وإذا عاد جياش إلى زُبيد نشرت المصاحف وابتهلت له الرعايا بالدعاء . وظهرت الفقهاء . وتطاولت العلماء . واحتسب جياش للعمال ما قبضه منهم سبأ ونوابه فى مدة الشتاء والربيع » .

ولما طال ذلك على جياش وأتعبته حرب العرب وخشى منهم الغلب دبر له وزيره خلف بن أبى طاهر حيلة فأرسل من يشير على الأمير سبأ الصليحى بوصوله إلى زُبيد . وقد أشار الوزير خلف على جياش بأن يعتقله ويقبض أملاكه وأمواله . وأن يقيم محمد بن الغفارى وزيراً له ففعل ذلك . ثم إن خلفاً تظاهر بأنه نقب السجن وهرب إلى سبأ . فلم يزل يُحَسِّن له النزول إلى تهامة حتى ذهب إلى زُبيد ومعه ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل . وكان جياش قد أعد الجموع واستنصر بالشريف يحيى بن حمزة بن دهاس، وكان كثير من زعماء جيوش جياش قد كاتبوا الصليحى غدراً وكيداً ، فلما انتهى سبأ ، وفرقته إلى باب زُبيد ، وكان الشريف وغيره قد نصبوا مع جياش كميناً ، ظهروا على الناس بغتة . ووقعت بينهم موقعة الكظائم المشهورة فى اليوم الخامس من ذى الحجة سنة ٤٧٩ هـ ، حيث انهزم سبأ ومن معه ، وقتل الأميران قيس بن أحمد بن مظفر (أخو الأمير سبأ) ومحمد بن مهنا الصليحيين ، وحمل الشريف يحيى ابن حمزة على القاضى عمران بن الفضل اليامى فطعنه طعنة مات بسببها بعد أيام وعُقر فرس الأمير سبأ ، فاضطر أن يسير راجلا فى أغمار الناس حتى حمله بعض جنده على جواده .

وفى قتل القاضى عمران بن الفضل اليامى يقول الشريف يحيى بن حمزة مفتخراً :

أبلغ نزاراً حيث حل نزارُ . . . .

ومنها :

ونجا الحجازىُّ الرئيسُ بطعنة   نجلا لها تحت القميص خوارُ

ثم اعتذر إلى الأمير سبأ فيما كان من نصره للحبشة فى قصيدة منها :

وقد يعزُّ علينا ما أصابكم   منا بغير رضا كفٍّ ولا قدم

والله يعلمُ أنى يوم وقعتكم   لم أمش إلا على جمر من الندم

وأن فيْض دم منكم كفيض دم   بكربلاء وثأر الطف لم يرم

فأجابه عبد الله بن يعلى الصليحى على لسان سبأ :

ياراكباً راح لايلوى على أحد   لقيت داعية التوفيق والنعم

إلى قوله :

فليس قيس وإن جلت رزيته   وكان صنوى لحمى لحمه ودمى

ولا الهمام أبو موسى وصاحبه   محمد وهما من أوثق العصم

بأول القوم منا حم موتهم   بين الأسنة والهندية الخُذُمُ

والسيف يأكلنا حيناً ونرتعه   حيناً إذا شاء فى الأعناق والقمم

وملك جياش زُبيد ، و لم يقدر العرب على أخذ تهامة بعد هذه المعركة برغم محاولات الأمير المفضل بن أبى البركات

لاسترجاعها ، وكانت هزيمة العرب ضربة قاسية على كيان الدولة الصليحية، بل على فكرة وحدة البلاد اليمنية تحت راية الدولة الصليحية العربية .

وفى عهد الملك على بن المكرم قام نزاع بين الصليحيين والزواحيين ، وكان هؤلاء أركان الدولة الصليحية ولحمتها فى إبان عهودها الأولى . فشغل ذلك النزاع أروى حقبة من الزمن لأن المخالفين انتهزوا هذه الفرصة ووجدوا فى هذا النزاع وسيلة لدك صرح الدولة الصليحية وإفسادها بالسعى لدى المتخاصمين فى توسيع شقة الخلاف مما دعا الملكة أروى إلى أن تعرض الأمر على الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله الذى أسرع برده ، وكلف الملكة بوجوب العناية لفض هذا النزاع بين سبأ بن أحمد الصليحى . وعامر بن سليمان الزواحى ، وشدد عليها فى ضرورة وضع حد لهذا النزاع بين الاثنين حرصاً على سلامة الدولة .

ومن رده : « وأما ما كان شجر بين أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى ، وأبى الربيع سليمان بن عامر الزواحى أعزهما الله فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتباتك ... وقد كان أمير المؤمنين ندبك من قبل ويندبك، وفوض ويفوض إليك ، ويرتضى سداد رأيك لفصل هذه القضية وإعادة

الأمر فيها إلى الصورة المرضية العائدة بإطفاء الثائرة . وحسم ما شجر بين المذكورين من النفار . وإحجام عزائمهما ورجالهما وأموالهما وعددهما ، لمايلف منهما من منابذة العدو والقيام بفرض الجهاد . ومقارعة ذوى العناد والإلحاد واسترداد ماشذ عن حوزة الدعوة الهادية من البلاد . والفيئة إلى أحسن ما كان عليه ، وأجمل ما يجرى أمثالهما إليه » .

ولما كانت مسألة هذا النزاع تعد مسألة حيوية بالنسبة لبقاء دولة الصليحيين واستمرار نفوذ الفاطميين فى اليمن ، فإن الخليفة المستنصر بالله لم يأل جهداً فى أن يتولاها بعنايته ورعايته لكى يقف تيار النزاع وتثبت أقدام الدولة ، فبادر فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨٠ هـ . وأرسل إلى أمراء الصليحيين وإلى الزواحيين وإلى رؤساء الحجاز وكافة رجال الدين وأهل الدعوة فى اليمن رسالة يحثهم فيها على تناسى الأحقاد ويأمرهم بوجوب طاعة الملكة أروى وابنها الملك على بن المكرم والتعاضد والترافد فى نصرة الدعوة الإسماعيلية . ويعد هذا السجل شهادة هامة على اعتراف الإمام بفضل الدولة الصليحية على الدعوة الإسماعيلية . كما يعد من أهم العوامل التى ساعدت على تثبيت مركز الدولة فى الصدر الأول من حكم الملكة أروى الصليحية . وكان من أثر هذا أن انتظمت الأمور

وعادت المياه إلى مجاريها . وأذعن المؤمنون هناك لأوامر الإمام ودانوا بالطاعة للملكة أروى .

وقد سر الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله كثيراً حين جاءت الأخبار من الملكة بأن النزاع بين الصليحيين والزواحيين قد انتهى على أحسن حال ، وقد وقفنا على ذلك الخبر من سجل أرسله الإمام المستنصر بالله إلى الملكة أروى فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٠ هـ ومن رسالة أخرى أرسلها إلى ابنها فى شهر ذى القعدة سنة ٤٨١ هـ . ومنها : « وكمل بورود أوامر أمير المؤمنين تمامه من زوال ما كان شجر بين سبأ ابن أحمد الصليحى وسليمان بن عامر الزواحى . وانقشاع ما كان غشى أمير المؤمنين بذلك من الضباب . وخمود ما كان تأجج من نار الفتنة التى أغلق دونها الباب . وعوْد الأمر فيما بينهما إلى أجمل عوائد الاتفاق. وتصرم حكم المجانبة والافتراق ، واستواء قلبيهما على الصلاح الجامعة للخير أسبابه والمفتحة له أبوابه والشاملة للكافة مبادئه وأعقابه. وتأليف نياتهما على التقوى ومخالفة الهوى المردى ، واتباع سبيل الرشد والهدى » .

ويصادف فى تلك الأثناء أن يموت ابن الملك المكرم الأصغر « الأمير محمد » فى حياة أخيه ، ولم تطل الأيام

حتى يقضى الله بوفاة الملك على نفسه ، فعاد الأمير سبأ يطالب بحقه فى تولى أمور الدولة والدعوة . ولكن الملكة أروى لم تمكنه من ذلك ، بل قامت هى وأعلنت كفالتها لكافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود والمستجيبين ، ثم نصبت نفسها المسؤولة الأولى عن شؤون الدولة .

فاتخذ الأمير سبأ سبيلا آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج ، وقد ظن أنه يستطيع أن يصل بهذه الطريقة إلى تحقيق أغراضه بالملك ، مع أنه كان يعلم تماماً بأنها سوف لا ترضى بهذا الزواج وكيف يتم ذلك وقد سبق أن استعفت زوجها الملك المكرم بقولها : « إن المرأة التى تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعنى وما أنا بصدده ! »

وقد حدث هذا فى حياة زوجها الملك المكرم الذى كانت تشاطره الحكم ... أما الآن وقد تولت تدبير شؤون الدولة الداخلية والخارجية وحدها ، وأمور الدعوة الإسماعيلية أيضاً ، فإنه من المستبعد كثيراً أن تقبل بهذا الزواج السياسى .

ولما رفضت الملكة أروى ذلك وأنكرته غاية الإنكار ، جمع الأمير سبأ جيوشه وجموعه وسار من حصن أشيح إلى ذى جبله لا لمحاربة الملكة بل لإظهار قوته وسؤدده ، فجمعت هى أيضاً جموعها ، فتناوش الفريقان ، وكادت رحى الحرب

تدور بينهما لولا أن سليمان بن عامر الزواحى (أخو الملكة أروى لأمها) أنقذ الموقف، فقد أشار على الأمير سبأ أن يتصل بالخليفة المستنصر بالله ويقيمه حكماً فاصلا بالأمر ، فهو الخبير والقاضى فى فض هذه المشكلة .

فترك الأمير سبأ المنهج العسكرى ورجع إلى حصن أشيح ، وسير إلى الإمام المستنصر بالله رسولين هما : القاضى الحسين بن إسماعيل الأصبهانى ، وأبو عبد الله الطيب ، وقد ساعدته فى تحقيق مطلبه رغبة الإمام المستنصر بالله فى استتباب الأمن فى اليمن وفى إقرار الوحدة بين أنصار الدولة الصليحية والدعوة الإسماعيلية ، فلما وصل هذان الرسولان إلى القاهرة لم يرض الإمام المستنصر بالله عن بقاء هذا النزاع بين أنصاره فعمل أن يجذب إليه الفريقين المتنازعين بزواج الملكة أروى من الأمير سبأ ، فكتب إليها يأمرها بقبول الزواج ، وأرسل كتابه مع الرسولين ، ولما دخلا على الملكة أروى وهى بدار العز فى ذى جبلة تكلم الرسول وهو واقف بين وزرائها وأهل دولتها فقال : أمير المؤمنين يقرأ السلام على الملكة أروى السيدة الرضية ، الطاهرة الزكية ، وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة الإسلام ، ذخيرة الدين ، عصمة المؤمنين ، كهف المستجيبين ، ولية

أمير المؤمنين، كافلة أوليائه الميامين. ويقول لها : « قد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعى الأوحد ، المنصور، المظفر، عمدة الخلافة ، أمير الأمراء سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوى » .

فرفضت وأصرت على رفضها ، ولم يزل وزيرها زُريع ابن أبى الفتح والقاضى الأصبهانى يلاطفانها حتى أجابتهما إلى تحقيق رغبة الخليفة . فعقدوا عقد الزواج ، ولم يلبث الأمير سبأ أن سار فى أمم عظيمة إلى ذى جبلة ، فأقام شهراً والضيافات الواسعة تخرج إلى مخيمه فى كل يوم حتى أنفقت على جيشه مثل ماقدمه من المهر . ورأى الأمير سبأ من عالى همتها ما حقر نفسه معها ، حتى ندم على خطبتها . وهناك أقوال كثيرة حول هذا الموضوع وأهمها وأرجحها هو أن الأمير سبأ لم يتزوجها ، ومع ذلك أقامته الملكة أروى فى الدعوة والملك ؛ وكان كما مر فاضلا ورعاً تقيًّا زاهداً ، ما وطئ أمة قط ، ولا شرب مسكراً، كريم الأخلاق طيب الأسباب والأعراق يقصده الشعراء وطلاب الندى . وقد أقام معه فى أشيح الشاعر الحسين القمى ، ومدحه بقصائده الغر ، ومنها :

إن ضامك الدهر فاستعصم بأشيح أو
أزرى بك الفقر فاستمطِرْ بنان سبا
ما جاءه طالبٌ يبغى مواهبَـــه
إلا وأزمع منه فقْرُه هربـــا
تخال صارمه يوم الوغى نهـــرا
تضرمت من دم حافاته لهبـــا
بنى المظفر ما امتدت سماء علا
إلا وألفيتُمُ فى أفقها شهـــبا
إن امرأ كنت دون الناس مطلبه
لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا

ويقول ابن القم :

وما يلتقى صدق الوداد وطاعة الـ
عذول ولا جود ابن أحمد والجدبُ
كريم إذا جادت فواضل كفِّــه
تيقّنت أن البخل ما يفعل السحب
أجار فلا خوف وأحيا فلا ردًى
وجاد فلا فقرٌ ورام فلا صعبُ
ويثنى على قصاده فكأنــــه
يجاد بما يُجدى ويحبى بما يحبـو

كتبت إليه والمفاوز بيننــــا
وكان جوابى جود كفيه لا الكتب

ومن شعره فيه أيضاً :

معاليك لا ما شيدته الأوائـــلُ
ومجدك لا ما قاله فيك قائـــلُ
وما المجد إلا حيث يممتَ قاصـــداً
وما النصرُ إلا حيث تنزل نازل
مليك يقض الجيش والجيش حافـل
ويخجل صوب المزن والغيث هاطل
سحاب غواديـــه لجين وعسجد
وليث عواديـــه قناً وقنابـــل
توقى الأعادى بأسه وهو باسمٌ
ويرجو الموالى جودَه وهو صائـــل

وكان الأمير سبأ فصيحاً شاعراً يجيب الشعراء على قصائدهم ، ثم يجيزهم ويزيد فى برهم ، ومن ذلك أن ابن القم مدحه فأجابه بمثل شعره وأجازه بجائزة سنية لا تصدر إلا عن مثله ، فقال فى ذلك القمى :

ولما مدحت الهزبرىَّ ابنَ أحمـــد
أجاز وكافانى على المدح بالمدحِ

فعوضنى شعراً بشعرى وزادنى
عطاءً فهذا رأس مالى وذا ربحى
شققتُ إليه الناس حتى لقيته
فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح
فقبح دهر ليس فيه ابنُ أحمدٍ
ونزه دهر كان فيه من القبح

وهكذا ظل الأمير سبأ فى حصن أشيح يقدم المساعدات إلى الملكة أروى فى كل ما يعود على الدولة بالخير حتى وافته المنية سنة ٤٩١ هـ . وتشاء الأقدار أن يموت بعده أى سنة ٤٩٢ هـ أخو الملكة أروى لأمها عامر بن سليمان الزواحى وكانا من أركان الدولة الصليحية .

ولما مات الأمير سبأ وعامر خرجت صنعاء وأعمالهـا عن مملكة الصليحيين وارتفعت أيديهم عنها ، ولم يبق لأحد منهم فيها ذكر ، فاستولى على صنعاء وأعمالها يومئذ حاتم المغلس الهمدانى ، وكان ناهضاً كافياً ، ولم تحاول الملكة أروى إعادتها إلى مملكتها ، بل قبلت الأمر الواقع ، واتجهت إلى تدعيم ما بقى من المملكة ، فأقامت المفضل بن الوليد الحميرى على قيادة الجيش وإدارة شؤون الدولة التى كانت بحاجة إلى شخصية قوية ، وكان المفضل يتصرف بالأمور ،

ويدخل على الملكة أروى مع لخواص وزرائهـا والأمراء والأكابر ، وهو رجل الدولة ومدبرها ، والمرجع إلى رأيه وسيفه ، والملكة أروى لا تقطع أمراً إلا به ، فعظم بذلك شأنه وعلت كلمته ، وغزا تهامة مراراً ، فتارة كانت له وتارة عليه ، وهبط عدن مراراً ، ولم يبق باليمن من يساميه قدراً . وكان له فى نصرة الملكة أروى مواقف حميدة منها أنه تولى قيادة الجيش لمحاربة الأمير سبأ حينما تأزمت الأمور بينه وبين الملكة أروى ، ولم تجبه إلى طلبه ، كما حارب الأمير على ابن سبأ صاحب حصن قيضان وأخرجه منه سنة ٤٩٥ هـ ، وملك حصون بنى المظفر فى نفس العام ، وحارب عمرو بن عرفطة الجبنى وغيره من سنحان وعنس وزُبيد واسترجع نصف خراج عدن من آل زريع .

وحدث فى سنة ثلاث وخمسمائة ما لم يكن فى الحسبان ، وذلك أن أولاد جياش اختلفوا فيما بينهم ، وكادت الفتن الداخلية تقضى على دولتهم فى تهامة ، ولما لم تكن الدولة الصليحية فى حالة تسمح لها بإيقاد نار الفتنة فى تلك البلاد تمهيداً لاحتلالها أو بقادرة على حفظ كيانها فى ذلك الوقت، لم تتمكن من انتهاز الفرصة واسترداد البلد الذى طالما تاقت لضمه إليها . ولكن هذا الخلاف أدى إلى خروج منصور

ابن فاتك بن جياش من زُبيد فراراً من عمه عبد الواحد ، وسار فى عبيده وعبيد أبيه ، ونزلوا فى رحاب الملكة أروى ، فأكرمت مثواهم ، وتعهدوا للملكة بدفع ربع متحصل تهامة إذا هى ساعدتهم وتم نصرهم على عبد الواحد ، فأرسلت المفضل بجيش كبير يساعده جيش آخر بقيادة زريع بن العباس وعمه مسعود الهمدانى .

وولت على التعكر من يحفظه فى غياب المفضل الذى تمكن من الاستيلاء فيما بعد على زُبيد بعد حصار طويل ، وطرد عبد الواحد ، وهنا ماطل المفضل فى تولية منصور بن فاتك ، ولكن لمّا جاءته الأخبار بأن التعكر قد استولى عليه جماعة من الفقهاء بمساعدة بنى الزر الخولانيين فقفل راجعاً وحاصر الحصن مدة ولكنه لم يستطع اقتحامه ، وذلك لأن الفقهاء السنيين — بالإضافة إلى قبيلة خولان التى كانت تظاهرهم — دافعوا عنه دفاعاً مجيداً، وما زال الحصار عليهم، ثم رأى الفقهاء أن خولان خذلتهم فدبروا حيلة .

ويقول المؤرخ عُمارة اليمنى : إن عمى إبراهيم بن محمد بن زيدان كانت له البيعة، وحلف ألا يموت حتى يقتل المفضل، فعمد إلى حظاياه من السرارى وأخرجهن فى أكمل زى وأحسنه ، وجعل بأيديهن الطارات ، وأطلعهن على سقوف

القصور بحيث يشاهدهن المفضل ويسمع هو وجميع من معه أصواتهن ، وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة ، فقيل إنه مات فى تلك الليلة ، وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة ٥٠٤ هـ .

ولما مات المفضل طلعت الملكة من ذى جبلة ، وحطت بالربادى على باب التعكر ، وكاتبت الفقهاء بالنزول من الحصن على أن يقترحوا عليها ما شاءوا ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا عليها شروطاً وفت لهم بها ، وولت التعكر مولاها فتح بن مفتاح .

وكان المفضل حازماً عاملا شجاعاً شهماً له عدة مكارم وجملة مفاخر ، لكنها دون مكارم الأمير سبأ بن أحمد ، وكان جواداً ممدحاً قصده الشعراء من الأماكن البعيدة ، ومن جملتهم مواهب بن حديد المغربى وامتدحه بغرر قصائده ومن بعضها :

يا مالك الدين والدنيا وأهلهما
ومن بعزته الإسلام ممتسكُ
قد قيل جاور لتغنى البحر أو ملكاً
وأنت يا بن الوليد البحر والملك

وهو الذى جر الغَيْل من « خنوة » إلى مدينة الجَنَد . ومدحه القاضى أبو بكر اليافعى فقال :

وأقل مكرمة له وفضيلـــــة
إجراؤه للغَيْل فى الأجنـــاد
شق الجبال الشامخات كأنمـــا
كانت معالمها متون وهـــاد

وذلك أنه حفر فى الصفا حفراً عديدة ، وخرق بعضها إلى بعض ، وأجرى الماء فيها فى مواضع لا يصدق بها إلا من رآها ، ثم لما جاء إلى موضع بين جبلين أمر الصناع ، فبنوا جداراً من الجبل إلى الجبل طوله مائتا ذراع وعرضه نحو من عشر أذرع بالحديد وارتفاعه نحو من خمسين ذراعاً بحيث إذا رآه شخص يقول ما فعل هذا إلا الجن ، وبنى مسجد الجَنَد ، وجدد بناءه من المقدم والجناحين ما هو مبنى بالحجارة وسقفه على ذلك ، وقال صاحب « قلادة النحر » إن محمد ابن زياد المأربى مدحه فوصله المفضل بألف دينار ، وكان من صفاته عندما عظم أمره أنه كان يحتجب عن الناس حتى لا يرجى لقاؤه ، ثم يظهر فيُغْنى من اجتمع ببابه من الوفود ، ويصل إليه الضعيف والقوى ، فينظر فى أحوال الناس والعمال ، ويجيب على كل كتاب وصل إلى الباب ، ثم يغيب فلا يظهر ولا يوصل إليه .

وقد أدت وفاة المفضل إلى خروج بعض الجهات على

الملكة أروى ، فاستولى مسلم بن الزر على حصن خَدد ، وأخرج منه عبد الله بن يعلى الصليحى الشاعر الأديب ، ثم أظهر ولاءه إلى الملكة أروى بأن قدم ولديه عمران وسليمان كرهينة عندها ، فاهتمت الملكة بتربيتهما ولما ترفى مسلم ملك بعده ابنه سليمان حصن خَدد ، وبقى عندها عمران الذى تولى على حصن التعكر سنة ٥٠٥ ﻫ ، بعد أن تخلص من فتح بن مفتاح الذى شق عصا الطاعة على مولاته الملكة واحتال عليه بنو الزر ، وذلك أنهم خطبوا ابنته لعمران فزوجه بها ، فلما كانت ليلة الزفاف وصل جماعة منهم فأخرجوه من الحصن ، فلما حصل التعكر بيد عمران واصل فتح الملكة أروى ببذل الطاعة ، فلم تلتفت إليه ، فازداد نفوذ ابنى الزر تبعاً لذلك ، وامتدت أيدى خولان على الناس وعاثوا فساداً ، فكانت الملكة أروى إذا رأتهم قد طغوا أرسلت إلى عمرو بن عرفطة الجبنى سطراً أو سطرين بخطها ، فقبض على بلاد ابنى الزر ، فلا يخلصهما منه إلا الضراعة إليها والسؤال لها فى صرف العرب عنهما .

وحرصاً على سلامة الدولة أقامت الملكة أروى مقام المفضل ابن عمه الأمير أسعد بن أبى الفتوح بن العلاء بن الوليد الحميرى من القيام بدولتها ، والذب عن مملكتها والتوجه أينما أمرته ،

وكان متولياً تعز وصَبِر ، إذ كان أبوه قبله والياً عليهما ، فأخذ يدير شؤون الدولة على أحسن حال حتى غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه بين البابين فى حصن تعز سنة ٥١٤ ه .

ولما تعقدت الأمور على الملكة أروى أرسلت إلى مقر الإمامة الفاطمية فى مصر تطلب منها إعارتها مستشاراً ليساعدها فى تدبير شؤون دولتها ، وقد شعرت الخلافة الفاطمية بأن مركز الدولة الصليحية بدأ يتزعزع ، فبادر الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى فى سنة ٥١٣ ه إلى إرسال الأمير الموفق « على بن إبراهيم بن نجيب الدولة » يصحبه عشرون فارساً مختاراً إلى بلاد اليمن ليقوم بهذه المساعدة .

وكان ابن نجيب الدولة قد قدم من مصر قبل وفاة الأمير أسعد بن أبى الفتوح الحميرى ، فقررت الملكة أروى إقامته فى مدينة ذى جبلة للاستشارة ولتصريف الشؤون الحربية والإدارية ، وكان متفقهاً فى أصول الدعوة الإسماعيلية ، مستبصراً فى المذهب الشيعى الجعفرى ، وكان على خزائن الكتب الأفضلية بمصر ، وكان نبيهاً حسن التدبير كثير المحفوظات قيماً بتلاوة القرآن على عدة روايات ، وكان يلقب بألقاب تدل على سمو قدره ، وكان موضع ثقة الخلافة الفاطمية . ولابد أن يكون هذا الرسول مكلفاً بأمور هامة لعلها كانت

تمكين الدعوة الفاطمية فى اليمن ، وتعزيز مركز الملكة أروى بعد أن طمع فيها زعماء البلاد واستقلوا بما تحت أيديهم .

وقد كان ابن نجيب الدولة عند حسن ظن الدولة الفاطمية به ، فلما وصل إلى جزيرة دهلك من عدن لقبه الداعى محمد بن أبى العرب ، فكشف له أسرار اليمن وأحوال الناس وأسماءهم وكناهم وتواريخ مواليدهم وما تحت ثيابهم من شامة أو جراح أو أثر نار .

فجاء إلى ذى جبلة ، وتشرف بمقابلة الملكة أروى ، فقلدته أمر جيوشها ، فاستخدم أربعمائة فارس من همدان وغيرهم ، وقدم عليهم الطوق الهمدانى ، واشتد بهم جانبه ، وقويت شوكته ، وتمكن من وضع حد للخلافات الداخلية ، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد .

وكان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين ، لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا فى البلاد ، واستهانوا بالملكة أروى ، فطردهم من ذى جبلة ونواحيها ، وأوقع بمن بقى منهم حتى لم يبق منهم إلا ما كان منتسباً للملكة ؛ فلما رأت ذلك منه أمرته أن يسكن الجَنَد .

وقد أمنت البلاد ، واستقرت الأمور ، ورخصت الأسعار بحسن سياسته وتدبيره ، وأقام العدل ، وعفّ عما فى أيدى

الناس من الأموال ، وأقام الحدود وعزز جانب الملكة أروى ، وانقمع أهل اليمن عن الطمع فى أطراف بلادها ، وقد كان برنامج ابن نجيب الدولة مقصوراً على إخضاع إمارات اليمن الصغيرة للملكة أروى ، فتحسن بجهوده الفئة مركز الدعوة فى اليمن ، كما ساعد الملكة على جمع شمل كل من كان قد تفرق عنها ، وقد بلغ هذا الشأو البعيد من النجاح فى عامين اثنين ، بين سنتى ٥١٣ و ٥١٥ هـ ، وكان نجمه لايزال فى صعود ، لأنه بعد وفاة الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ أمده المأمون البطائحى الوزير بالمال والرجال ، فسير إليه أربعمائة قوس أرمنى وسبعمائة أسود . وقبل ذلك تمكن ابن نجيب الدولة من أن يستخدم ثلثمائة فارس من سنحان بقيادة الطوق الهمدانى بالإضافة إلى من انضم إليه من أهل الدعوة ، وقد ساعدت هذه العوامل على ارتفاع شأنه عند الملكة أروى وبخاصة بعد أن كتب إليه الوزير المأمون بالتفويض فى الجزيرة اليمنية ، وبسط يده ولسانه ، وأوجب عليه تقديم المساعدات للملكة أروى فى كل ما تطلبه .

ولقد أطمعه هذا المركز الحربى الممتاز فى محاربة الدولة النجاحية فى زُبيد سنة ٥١٨هـ، والوزير يومئذ بها « منّ الله الفاتكى » أحد عبيد بنى نجاح ، وكان عشرة رماة من الأرمن

أصحاب ابن نجيب قد استأمنوا إلى أصحاب زُبيد . ولما تزاحف الرجال فى الحرب رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم فلم يخطئ أنف الفرس الذى عليه ابن نجيب الدولة ، فسقط إلى الأرض ، وشب الفرس عن ابن نجيب الدولة نافراً ، فانهزم عسكره ، وقتل السودان بأسرهم ، ولم ينج من الأرمن سوى خمسين ، وكانوا أربعمائة قوس ، وأما ابن نجيب الدولة فقاتلت عنه همدان أشد قتال حتّى أردفه رجل منهم يسمى السباعى ، وكان فى همدان « الطرق الهمدانى » فأبلى هو وقومه بلاء عظيما .

ومن الجدير بالذكر أن جواد ابن نجيب الدولة قد انفلت من المعركة صلاة يوم الجمعة ، فأصبح يوم السبت ببلدة الجَنَد ، وبينها وبين زُبيد أربعة أيام، فذاع يوم الأحد بذى جبلة أن ابن نجيب الدولة قد قتل ، ولكن ابن نجيب وصل إلى الجَنَد بعد أربعة أيام ، وركب إلى ذى جبلة، واجتمع بالملكة أروى ، فعاضدته ، وأعطته الأموال ، وجمعت إليه الرجال بعد هزيمته فى زُبيد ، فمازال يغزو العدو إلى أقصى البلاد .

على أن ابن نجيب الدولة لم ينج من حسد منافسيه الذين أخذوا يوقعون بينه وبين الملكة أروى فأخذت علاقته

بها تفتر منذ عام ٥١٩ هـ ، حتى قيل إنه رماها بالخبل فقال : « قد خرفت واستحق عندى أن يحجر عليها » .

ثم اجتمع عليه أمراء اليمن سليمان وعمران ابنا الزر ، وسبأ بن أبى السعود ، وأسعد بن أبى الفتوح والمنصور بن المفضل فى ألفى فارس وثلاثة آلاف راجل فأحاطوا به فى الجَنَد ، وكانت الجَنَد ذات سور وكان مع ابن نجيب الدولة من همدان أربعمائة فارس منتقاة ، وكل فارس منهم يعد بمائة فارس . فلما اشتد الحصار عليه وهو فى أشد حالات التعب أرسل إلى الملكة أروى يطالب النجدة ، فأرسلت على جارى عادتها إلى عمرو بن عرفطة الجنبى ، فأتاها فخيم بذى جبلة ، وبعثت إلى وجوه القبائل ففرقت فيهم عشرة آلاف دينار مصرية ، وقالت للرسل أشيعوا فى العسكر أن ابن نجيب الدولة فرق فى الناس عشرة آلاف دينار مصرية ، فإن أنفق الأمراء شيئاً من الذهب المصرى بقينا وإلا ارتحلنا . فلما طالب الجند الأمراء بذلك وعدوهم ،ولما كان من الليل ارتحل الجند وتفرقوا كل واحد منهم إلى بلده، وأصبحت الأمراء بلا جيش، والحشود بلا أمراء، وانفض الناس عن الجند بهذه الحيلة الحربية، وهنا قيل لابن نجيب الدولة: هل أبصرت هذا التدبير للتى قلت إنها قد خرفت، فركب إلى ذى جبلة، وتنصل واعتذر.

لكن هذا التصرف الذى أنقذ ابن نجيب الدولة من الحصار ، ودل على حنكة الملكة أروى فى حرصها على إبقاء كلمة الفاطميين فى اليمن هى العليا ، قد أغضب سلاطين هذه البلاد لإخفاقهم فى التشفى من منافسيهم .

ولما رأى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله أن سياسة ابن نجيب الدولة التى رسمها له الفاطميون قد حادت عن الخطة المرسومة أرسل إليه يستدعيه إلى مصر ، وبذلك انتهز أمراء اليمن الفرصة واتصلوا برسل الخليفة الفاطمى وشوهوا سمعة ابن نجيب الدولة لديهم ، وقالوا إنه كان يقوم بالدعوة ضد الفاطميين ، وكان يريد تملك اليمن والاستقلال به .

كل هذا قد ترك أثراً سيئاً فى نفس الخليفة ، فأرسل إلى اليمن الأمير الموفق ابن الخياط فى مائة فارس للقبض على ابن نجيب الدولة ، ولما وصل إلى الملكة أروى فى ذى جبلة طالبها بتسليمه ابن نجيب الدولة ، وكانت قد قبضت عليه بحيلة ، فامتنعت عن تسليمه فى بادئ الأمر ، وأخيراً برأته مما نسب إليه وأظهرت طهارته وإخلاصه ، وأوصت به خيراً ، ثم سلمته إلى الأمير الموفق سنة ٥٢٤ هـ امتثالا لأمر الإمام بعد أن استوثقت له من ابن الخياط بأربعين يميناً ، وكتبت إلى الخليفة ، ثم أرسلت إليه كاتبها محمد بن الأزرى ،

وكان أديباً مجيداً للألفاظ ، وسيرت معه بدرة من الأموال تقدر بأربعين ألف دينار ، وخرج ابن نجيب الدولة وهو فى قفص من خشب ، والناس ينظرون إليه فقال لهم : « ما تنظرون ؟ أسد فى قفص ! »

ويختلف المؤرخون فى نهاية ابن نجيب الدولة ، فبعضهم يقول : إن السيدة الحرة الملكة أروى سلمته إلى رسول الخليفة ، وبالرغم من شفاعتها وأخذها الأيمان الغليظة على الرسول ألا يمسه بأذى، تآمر أعداؤه مع الرسول على إغراقه فى البحر قرب باب المندب .

ويقول المؤرخ ابن ميسر فى كتابه : « أخبار مصر » : إن ابن نجيب الدولة وصل إلى مصر وشهر به فى القاهرة سنة ٥٢٤ه . وقال آخرون إنه لا يعلم ما جرى لابن نجيب الدولة بعد خروجه من اليمن .

ومهما يكن من أمر فإن نجم ابن نجيب الدولة قد أخذ يأفل منذ أن دبّ النزاع بينه وبين الملكة أروى، ومنذ أن أساء التصرف فى أمور الدولة . أضف إلى ذلك حقد أمراء اليمن عليه ومؤامراتهم ضده ومع ذلك فإن الملكة أروى فقدت بخروجه من اليمن أنشط أنصارها ومساعديها فتجلى طمع الأمراء فيها فى نفس اليوم الذى فارق فيه ابن نجيب الدولة

مدينة ذى جبلة إذ دخل عليها سليمان وعمران ابنا الزر شامتين فى ابن نجيب الدولة وخرجا من عندها وهما أشد ما يكونان سروراً وانشراحاً .

وبعد رحيل ابن نجيب الدولة اختارت الملكة أروى « على بن عبد الله الصليحى » ابن أخى على بن محمد الصليحى للدفاع عن دولتها وتولى الشؤون العامة . ولم يحدثنا تاريخ اليمن عما قام به من أعمال ، ولكن يظهر أن الدولة الصليحية بلغت درجة الانهيار فى عهده .

ومهما يكن من أمر فإن الملكة أروى عندما انفردت بالحكم فى آخر أيامها تاقت نفوس أمراء اليمن إلى الاستقلال والاحتفاظ بما تحت أيديهم من القلاع والحصون والبلاد ، بالرغم مما بذلته من جهود، وما استعملته من حكمة ودهاء ، وما اعتمدت عليه من الرجال المشهورين بالكفاية والمقدرة والإدارة وبالرغم من معاضدة الخلافة الفاطمية فى القاهرة لها ... لكن العوامل الانحلالية وأسباب الانقراض تسربت إلى قلب الدولة ، فكانت أقوى من العوامل الأخرى كافة ، وتغلبت أخيراً عليها .

ومن الجلى الواضح تاريخيًّا أنه كان فى تلك الأثناء منصور ابن المفضل بن أبى البركات الحميرى مستولياً على ذى جبلة،

وملك منصور أيضاً أشيح وحصونه بعد وفاة أبيه المفضل سنة ٥٠٤ هـ ، ولكنه ظل يدين بالطاعة للملكة أروى حتى وفاتها سنة ٥٣٢ هـ . وبعد ذلك استولى على ما كان تحت يدها من حصون وذخائر وأموال. ولما تقدمت به السن، وصار لا يستطيع حماية هذه الحصون من الطامعين، وأعيته الشيخوخة عن التحرك والمدافعة ، باع حصون بنى الصليحى ومدنهم سنة ٥٤٧ هـ ، وهى ثمانية وعشرون حصناً ومدينة ، ومنها ذى جبلة والتعكر وذى أشرق وإب . وقد ابتاعها المتوج محمد بن سبأ الزريعى بمائة ألف دينار .

ويصادف فى تلك الأثناء أن يطلق منصور زوجته الصليحية ، وكانت الوريثة الوحيدة للملك وللثروة ، فتزوجها محمد بن سبأ الزريعى فقوى نفوذه ، وامتد ذكره لما صار إليه من المال والقوة والمعاقل والعقائل .

وقد بقيت هذه الحصون والمدن فى أيدى ملوك بنى زريع إلى أن استولى على بلادهم « عبد النبى بن على بن مهدى » وبعد ذلك صالحوه على تركها فى أيديهم ، وظلت كذلك حتى أزالهم عنها « توران شاه بن أيوب » .

وهكذا انتقلت السيادة فى اليمن من اليمنيين إلى الأيوبيين الذين حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين ، وأقاموا

الخطبة للعباسيين فى جميع أنحاء اليمن التى دخلت تحت رايتهم .

وأخيراً ، لابد من القول إن الملكة أروى الصليحى الإسماعيلية ستبقى خالدة فى نفوس اليمنيين والعرب بصورة عامة مدى الدهور ، كما بقيت إلى يومنا هذا مآثرها وأعمالها الجليلة التى تنطق بعظمتها وستظل وحياً ونوراً فى حياة الشعب مهما اختلفت الطرق واشتدت الأزمات وبعدت المسافات وتخلفت القوافل ، لأنها وحيدة كل زمان والمرأة التى حكمت اليمن بعد « بلقيس » .

ومن مجريات الأمور والحوادث التاريخية المتسلسلة يستدل أن الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله كان يعدها مثلا أعلى للمرأة ، وذلك لكفايتها فى إدارة شؤون البلاد وحكمتها وسياستها ، فلهذا لا يدخلها فى عداد ربات الحجاب .

والحقيقة : أنها من شهيرات النساء اللائى كان لهن أثر ظاهر فى حياة بلادهن ، وقد أثرن روحياً وعملياً فى حياة الشعوب وجعلن الأجيال تحنى أمامهن الهامات إجلالا واحتراماً لما قمن به من جليل الأعمال .

فهى ملكة عظيمة توجها الشعب اليمنى ، وضمها إلى صدره ، وأحبها ، ونظر إليها كما ينظر إلى القديسين والمخلصين الذين يخرجون بالناس من الظلمات إلى النور .

وقد عشت بالروح مع هذه المرأة أتسقط أخبارها من كل سفر ، وأتعرف على أخبارها من أغرب المخطوطات ، وكلما زاد بى البحث والتنقيب زدت بها حباً ، وتضاعف إعجابى وتقديرى لها .

ذاك عصر بعيد ، ولكنه جميل ، نرى فيه الطموح والمغامرة والتطاحن السياسى والمؤامرات والحروب والقتل ، كما نلمس فيه الثبات والرجولة والوفاء يتجلى مع سحر الشرق وروحانيته وكرم بنيه وإيمانهم الراسخ بالله .

ماتت الملكة أروى الصليحى فى غرة شهر شعبان من سنة ٥٣٢هـ عن ٩٢ سنة ، ودفنت فى مسجد ذى جبلة إلى الجهة الجنوبية فى منزل متصل بالمسجد ، وكانت هى التى تولت عمارته وهيأت فيه قبرها . وقبرها إلى اليوم يزوره جميع فرق المسلمين ، ويعترف بفضلها الخاص والعام .

هذا ؛ وإذا كانت الدول الناهضة فى العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل لإسعاد شعوبها ، وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها ، ورفع مستوى المعيشة بين أفرادها ، وهى بذلك لا تترك ناحية من نواحى الإنتاج إلا ولتها عنايتها المرموقة ، لتصل إلى هدفها المنشود ، فتهتم بالزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات ، ويعد هذا العمل من قبل

هذه الدول عملا مشكوراً كما يعد من أهم الأسباب التى تساعد على تقوية مركز الحكومات فى نظر الرعايا — إذا كان ذلك وكان مدى تقدم الدول الآن يقاس بمقدار ما تقدمه الحكومات من إصلاحات فى سبيل رفع مستوى المعيشة للشعوب ، فإننا نقف معجبين عندما نعلم أن الملكة أروى قد سبقت الحكومات المتحضرة المعاصرة فى اهتمامها بتنمية اقتصاديات اليمن ، فقد اهتمت الملكة برعى المواشى وتحسين النسل لكى توفر للشعب بمختلف طبقاته اللحوم والألبان ، بل توفر القوة والغنى ، فقد أثر عنها أنها وقفت أراضى واسعة فى نواحى ذى جبلة وحقل قتاب تصرف غلاتها فى شراء الفحول من البقر ، كما وقفت أراضى كثيرة ثمينة خصبة لرعى المواشى ، وهذه الأوقاف لا تزال موجودة إلى الآن ومعروفة باسم « أوقاف السيدة » ، وكل هذا قد حدث فى العصور الوسطى مما يدل على أن الملكة أروى سبقت فى تفكيرها ووعيها دول العصر الحديث التى تعمل بشتى الوسائل على تنمية اقتصادياتها وتصرف الأموال الطائلة فى سبيل ذلك .

وأمر آخر لا يقل أهمية عما ذكرناه ، ويدل على سبق الملكة أروى فى تفكيرها لعصرها ، وهو الاستعانة بالمستشارين من الدول الأخرى ، وعلى الرغم من وجود شخصيات وأمراء

وزعماء أكفياء فى بلادها ، فقد عرف أنها طلبت من الخليفة الفاطمى فى القاهرة الإمام المستنصر بالله أحد رجاله المشهود لهم بالكفاية والمقدرة ، وقد أجابها لذلك بأن أرسل إليها ابن نجيب الدولة ، وهذا ما تفعلة الدول فى العصر الحديث فتستعين بالخبراء الأجانب على الرغم من توافر رجالها الممتازين وتقدمها فى مضمار الحضارة .

وعرفت الملكة أروى التجارة مرفقاً هاماً من مرافق الاقتصاد الوطنى ، وأن هذا المرفق يعتمد على المواصلات وهى الدعامة الكبرى لتسهيل نقل الحاصلات والواردات ، فعبدت الطريق من رأس جبل سمارة إلى السيانى على مسافة ثلاث مراحل ، ويعد هذا أول الطرق الزراعية الممهدة فى اليمن وأكثرها فائدة إلى الآن.

وأولت عنايتها أيضاً لحركة البناء والتعمير التى تعد دعامة قوية من دعائم استقرار الحكم ورضا الشعوب ، فأنشأت الكثير من المدارس ومنها مدرسة لتدريس الصحيحين بذى جبلة ، وأنشأت المصالح العامة المتعددة ، وبنت المساجد والمصحات، فهى التى وسعت جامع صنعاء ، وأضافت إليه الجناح الشرقى وصممت عمارته وزينته ، وكان اسمها مكتوباً على الأحجار البيضاء التى كانت فوق الباب ، ولكن التعصب لم يترك من هذه الأحجار شيئاً ؛ وبنت كذلك مسجد الضربة

فى بلاد يريم ، والمسجد الجامع فى ذى جبلة ، ولها علاوة على كل ذلك أعمال جليلة وآثار باقية لا تخفى .

يضاف إلى كل ماذكرنا من فضائلها وأعمالها وسياستها أنها منحت رعاياها فى البلاد اليمنية حرية الاعتقاد فلم يكن هنالك أى ضغط على أحد بسبب الدين وساوت بين كل رعايا دولتها فأصبح لليمن سمعة عالية فى كل مكان، وكان هذا من الأعمال التى تفاخر بها الملوك ، فهى تستهدف مصلحة الشعب وإتاحة الفرصة لجميع الكفايات فى بناء الوطن الذى كانت الملكة أروى تعده ملكاً للشعب وليس لنفسها أو لأسرتها .

وفى نهاية المطاف نقول :

إن السبب الرئيسى فى سرعة انتشار نفوذ الصليحيين فى اليمن فضلا عن سيرتهم الفاضلة ، واتحاد معظم قبائل همدان وحمير تحت لوائهم ، يرجع إلى الفوائد التى كسبتها دولتهم بفضل اتصالهم بالخلافة الفاطمية وبمنظمة الدعوة الإسماعيلية بالقطر المصرى ، لأن الدعاة أنفسهم كانوا يعترفون بأن المستجيبين لم يدخلوا حظيرة الدعوة إلا رغبة فى تكوين دولة أهل البيت ، وقد نرى أن ولاءهم للأئمة الفاطميين ، واتصالهم بالخلافة الفاطمية بمصر ساعد الملك على الصليحى عندما

قام بتأسيس دولته ، فقد ساعدته الدعوة فى امتداد نفوذه وتقوية مركزه حتى تمكن بهذه الطريقة وبقوة عزيمته وبعظيم همته أن يكون سيد اليمن الأول ، وكان هذا الاتصال بالخلافة الفاطمية المصرية فى الوقت نفسه ضعفاً لكيان الدولة اليمنية وبقائها .

أما عن امتداد نفوذ الصليحيين فى خارج بلاد اليمن ، فقد ذكرنا فيما سبق ما حدث بعد دخول الملك على الصليحى مكة سنة ٤٥٤ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ، فلقد كانت هنالك دوافع سياسية ، وعلى الأخص دينية ، تجعل الخلفاء الفاطميين يحثون ولاتهم فى اليمن على التدخل فى شؤون الحجاز لأن الفاطميين كانوا يريدون بشدة أن يخطب لهم على منابر الحرمين الأعظمين مكة والمدينة ، ولهذا نلاحظ منافسة شديدة فى تلك العهود تقع بين الخلافتين الفاطمية والعباسية ، فكانت كل منهما تسعى إلى الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالحجاز ، وذلك لتوطيد نفوذها ومركزها فى أهم نقطة التقاء للعالم الإسلامى .

وكل هذا من قبل الصليحيين بالإضافة إلى ردهم بنى شيبة عن قبيح أعمالهم ، وتأديب الشرفاء وإصلاح ما أفسده

بنو الطيب الحسنيون فى الحجاز ، وترخيص الأسعار ، ونشر الطمأنينة والأمن ، فى البلاد المقدسة .

ولقد كان لهذه الانتصارات فى الحجاز ولتلك السياسة الرشيدة والحماسة البالغة للدعوة من قبل على الصليحى الأثر العظيم فى تولى رئاسة الدولة ، ثم فى نيل ثقة الفاطميين وتكليفه من قبلهم بالإشراف على شؤون الدعوة فى الهند والبحرين والأحساء والسند . فعندما علمت الدوائر الحكومية الفاطمية بضعف حكام عمان نتيجة للثورات التى قامت فيها على حكوماتها الموالية للخلفاء العباسيين ، منحت الملك على الصليحى وولده الملك المكرم صلاحية الإشراف على رئاسة بلاد اليمن وعمان الدينية والسياسية معاً على الرغم من أنها كانت خارجة عن نطاق حكمه ، كما عهدت إليه بالإشراف على شؤون الدعوة فى البحرين والأحساء ، ويتبين ذلك من السجل المستنصرى الموجه إلى الملك المكرم ، فقد جعل له الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ولاية الأحساء وعمان جميعها دانيها وقاصيها ، ويأمره أيضاً أن يكون الأمير عبد الله بن على العلوى أمير الأحساء نائباً عنه فيها ، وأن يمده من جهته ، وذلك لأن له مواقف حميدة فى إقامة الدعوة الإسماعيلية ونصرتها على الخوارج وانتزاع زمام العمل والزعامة منهم .

إن الدولة الصليحية الإسماعيلية فى اليمن بفضل مؤسسها الملك على الصليحى كانت ذات مركز ممتاز فى العالم الإسلامى ، فقد تمكن الصليحى من جمع اليمن كله تحت لواء دولته ، كما مد نفوذها إلى البلاد المقدسة فى الحجاز شمالا وحضرموت جنوباً ، وفى عهد خلفه الملك المكرم صارت عمان والأحساء والبحرين والهند والسند تحت النفوذ الروحى للدولة الصليحية ، فبلغ هذا النفوذ أبعد غاياته فى عهد الملك المكرم . إن هذه الدولة التى حاولت أن تسعد رعيتهـــا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ما لبثت أن أخذت تضعف ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى .

وإذا أردنا أن نصل إلى معرفة هذا الضعف وجب علينا أن نرجع ذلك إلى أصول بعيدة لا يمكن التغاضى عن ذكرها فى معرض البحث .

فلقد استفادت هذه الدولة من غير شك من الحالة التى سبقتها ، وكانت اليمن كما ذكرنا تسودها الفوضى والانحلال قبل ظهور الملك على الصليحى ويحكمها الأمراء والسلاطين وبخاصة بنو نجاح الأحباش فى تهامة اليمن . فاستيلاؤهم على حكم تهامة وما جاورها أوجد روح التمرد والتذمر بين القبائل العربية التى عبرت عن عدم ارتياحها لهذه الحالة

بالانضواء تحت راية ملك عربى أصيل ينتمى إلى صميم قحطان ، وقبول بعض القبائل الدخول فى الدعوة الفاطمية مع كونها تخالف إلى حد ما عقيدتهم ، بعد ما رأوا من علو همة الصليحى وانتصاراته وحسن إدارته وسياسته وحرصه على مصالح رعيته . ولعل انتشار نفوذ الصليحى فى البلاد يرجع إلى رغبة تلك القبائل فى التخلص من حكم الأحباش .

لقد ارتاحت العرب واطمأنت بعد أن صير الصليحى شتات أمرهم وحدة يمنية جامعة ، وقضى على الدويلات وأطماع سلاطينها ، وأدخل نظاماً من نوع آخر بدل الفوضى والانفرادية واستقلال النظام القبلى ، بقدر ما ترتب على وحدة اليمن من منافع محققة للشعب وما بذله الصليحيون من جهد لإسعاد شعبهم طول مدة حكمهم ، وما فعلته هذه السياسة من تثبيت مركز الدولة ، لكن عوامل الانحلال والتذمر أخذت تظهر مرة أخرى بعد أن وجدت هذه القبائل وزعماؤها أنها فقدت ما كانت تتمتع به فى ظل النظام القبلى المستقل الذى كان منتشراً فى الجهات المختلفة ، وحل محله نظام الإقطاع فى عهد الدولة الصليحية لتستعيض به عن الحكومة المركزية ابتغاء الحصول على قسط من الأمن والاستقرار .

أضف إلى ذلك إهمال الدولة الصليحية والخلافة الفاطمية

فى مصر تحقيق التعاون الاقتصادى والتبادل التجارى بينهما .
ومن الجلى الواضح أن الدولة قد استنزفت قسطاً كبيراً من ماليتها وإنتاجها فى الحروب الداخلية والخارجية وكل ذلك بسبب العداء القديم بين هذه الدولة وأصحاب العقائد الأخرى .

ومما لاشك فيه أن الزراعة والفلاحة هما قوام المجتمع فى أى بلد كان ، وأن جمهور ذلك المجتمع يتكون من الفلاحين ، و لم تكن هذه الطبقة إلا من العناصر الفقيرة فى الشعب المحرومة من كل عطف ، ولهذا لم ترض بحكم الصليحيين . ولما كانت ثروة الدولة تعتمد الاعتماد الكلى على هذه الطبقة العاملة ، فإن عـــدالة حكم الصليحيين كانت تقتضى السهر على مصلحتها ومساعدتها ، والضرب على أيدى الولاة المخالفين الذين يعيشون بروحية القرون البعيدة القائمة على التحكم والاستعباد ، وإن مثل هذا العطف كان يلاقى كل قبول لدى هذه الطبقة ويحول دون انتشار روح التذمر بينهم ، وقد رأينا الملك على الصليحى قد وعد عماله بالتنكيل إذا رفع إليه شىء مما نهاهم عنه ، كما أمر جميع الرعية أن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من فعل القبيح والحسن حتى ينزل بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم ، وقد دعاه إلى ذلك خوفه من أن ظلم الولاة قد يثير حنق الرعية ، وتعلم ذلك ممن سبقه

فى حكم اليمن ، فعرف أنه بسياسة اللين المقرونة بالحزم يمكنه أن يحفظ دولته من أعاصير الفتن ومن رياح الثورات .

وكان الصليحى قد وزع السلطة فى البلاد بين من يثق فيهم من الصليحيين والزواحيين فأصلح كل حصن يحكمه أحد أعوانه ، غير أننا نرى أن هؤلاء الولاة كانوا مقيدين بسياسة خاصة رسمها لهم الصليحى ليسيروا على نهجها ، وعلى الرغم مما يبدو فى هذه السياسة من المنافع لمصالح الرعية ، وحرص الصليحى على استقرار الأمن فى ربوع دولته ، ما لبثت الأمور أن تغيرت بعد مقتله فى موقع المهجم سنة ٤٥٩هـ . وذلك لأن مدة حكم المكرم استنفدت كلها فى الحروب ، فلم يقدر أن يلتفت كثيراً لمصالح الرعية فأخذ نفوذ حكام الحصون يزداد ، وأخذ روح التذمر والاستياء من هذا النظام يزداد تبعاً لذلك ، هذا إلى جانب ما استتبعه من الأعباء الثقيلة التى كان يقع غراماً على طبقات الشعب الفقيرة وحدها ، ولم يكن هذا التذمر يرجع إلى عدم تعودهم هذا النظام الجديد وحده ، بل كان يرجع إلى حرمانهم الامتيازات والمنافع التى كانت تتمتع بها طبقة رؤساء الإقطاع الذين كانوا يختارون من قبائل أرستوقراطية معينة كالصليحيين والزواحيين أو اليامين لتضمن الدولة الصليحية تنفيذ سياستها

العامة . ولعل كثرة الحروب التى قام بها الملك المكرم فيما بعد ترجع إلى الاستياء من حكمه غير المستقر ، ولعل ذلك هو أحد الأسباب لاستنفاد الجهد والمال . وقد تمكن مع ذلك من حفظ دولته من كل هذه الأعاصير المضطربة الهوجاء .

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



